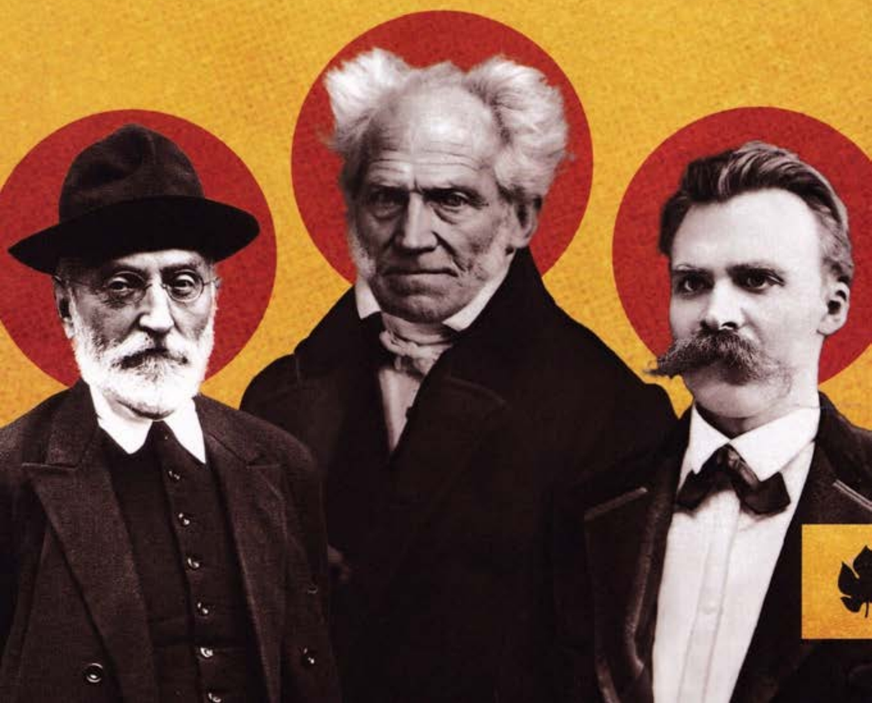
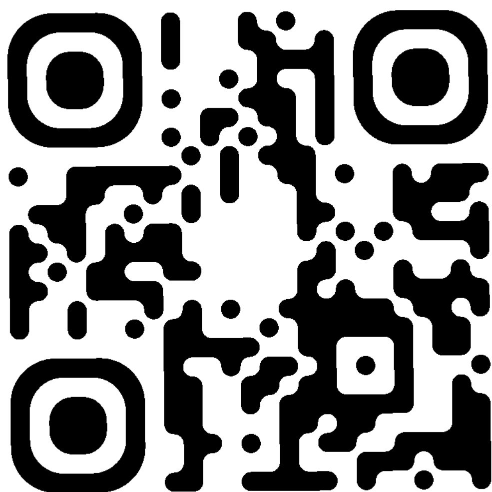
يوجين ثاكر

قديسو التشاؤم

ترجمة: أنور الشامي





قديســـو التشاؤم



الكرمة

alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

المؤلف: Eugene Thacker

العنوان الأصلي:

Infinite Resignation

First published in the UK and USA by Repeater Books, an imprint of Watkins Media Limited

www.repeaterbooks.com

ثاكر، يوجين

قديسو التشاؤم / يوجين ثاكر؛ ترجمه عن الإنجليزية أنور الشامي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.

١٥٢ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: 9789778721959

١- الفلسفة.

أ- الشامي، أنور (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٧٦٦ / ٢٠٢٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١ ٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يوجين ثاكر

قديسو التشاؤم

ترجمة

أنور الشامي



المحتويات

للتشاؤم قديسون يرقبون معاناتنا. ولأنهم متجهمون ومقلُّون في الكلام، لا يبدو أنهم يُبلون بلاءً حسنًا أبدًا في حفظ هؤلاء الذين يعانون، أو في التشفع لهم أو مؤازرتهم. ولعلهم بحاجة إلينا أكثر مما نحن بحاجة إليهم.

وللفلسفة قديسون، ولكن حكاياتهم ليست بالحكايات السعيدة. وهناك، مثلًا، القديسة كاثرين الإسكندرانية التي عاشت في القرن الرابع الميلادي، أو كاثرين ذات العَجَلة، حيث كُنيت بأداة التعذيب التي عُذبت بها. ولأنها أصبحت عالمة سابقة لعصرها وهي لم تزَل في الرابعة عشرة من عمرها، فقد كانت كاثرين تتعرض لتعذيب مستمر. وحين عجزت معها صنوف العذاب جميعها - بما فيها «العَجَلة الكاسرة»، استقر الرأي لدى الإمبراطور أخيرًا على قطع رأسها، وهي قصة رمزية عنيفة بيد أنها تليق بحامي حمى الفلاسفة.

ألا يستحق التشاؤم أن يكون له قديسون، حتى وإن كانوا ليسوا جديرين بالشهادة؟ ومع ذلك وجدنا، في بحثنا، أنه حتى أشد غلاة المتشائمين يأخذهم الحماس للحظات عابرة، مثل شغف بسكال بالعزلة، وشغف ليوباردي بالشِّعر، وشغف شوبنهور بالموسيقى، وشغف نيتشه بشوبنهور، وما إلى ذلك. هل ينبغي للمرء بعد ذلك التركيز على أعمال فردية؟ يمكننا أن نستحضر ثلاثية كيركجور في الرعب الوجودي وهي: «المرض طريق

الموات»، و«مفهوم الفزع»، و«خوف ورعدة»، لكن هذه الأعمال كانت معقدة بسبب مؤلفيها المختلَقين وغير الموثوق بهم. وكيف للمرء أن يَفصل المتشائم عن المتفائل في أعمال مثل كتاب أونامونو «الشعور المأساوي بالحياة»، أو كامو «أسطورة سيزيف»، أو حتى أدورنو «الأدب الصغير»[(١)]؟ وماذا عن حكايات فلسفة التشاؤم الكثيرة التي طواها النسيان، ومثالها كتاب إدجار سالتوس «فلسفة خيبة الأمل»؟ وحتى في الحالات التي تكون الأعمال الكاملة لمؤلف ما أعمالًا تشاؤمية، فإن المشروع يبدو دائمًا غير مكتمل، كما لو كان لا يزال هناك شيء آخر يمكن قوله، واتهام أخير لم يتم توجيهه...

ودَعْك من التشاؤم في الأدب، بدايةً بشخصية «فيرتر» الحزين لدى جوته، وحتى إنسان القبو لدى دوستويفسكي وكاتب بيسوا اللامطمئن، وقصائد بودلير النثرية القصيرة وسأمه، والتشاؤم الزهدي لدى هويسمانس وسترندبرج، والشعرية الصارخة واللاإنسانية لدى منج جياو وجورج تراكل وكزافييه فيلاوروتيا، والتعمية المحمومة لدى كل من ساكوتارو هاجيوارا ولاديسلاف كليما وفيودور سولوجوب، والنثر الملتاع والبارع لدى كل من ماريو دي سا كارنيرو وإيزومي كيوكا وكلاريس ليسبكتور، وكراهية البشر الصارمة في «أناشيد مالدورو» التي كتبها لوترياmon أو في رواية «حراس الليل» لدى بونافنتورا، وتضعضع العقل في مسرحية «في غياهب النسيان» لأنطونين أرتو أو «منزل الأمراض» لأونيكه تسورن. وكذلك بيكيت العجوز المتذمر. والقائمة تطول، ويمكنها سريعًا أن تشمل الإنتاج الأدبي بأسره، ثم

---

(١) العنوان الأصلي للكتاب هو «Minima Moralia»، ويستلهم المؤلف عنوانه من كتاب أرسطو «Magna Moralia»، وقد تُرجم الأول إلى العربية تحت عنوان «الأدب الصغير» من قِبل الدكتور ناجي العونلي، أستاذ الفلسفة الألمانية في جامعة تونس. ويستحضر عنوان الترجمة العربية فيما يبدو عنوان أحد مؤلفات ابن المقفع الشهيرة «الأدب الصغير والأدب الكبير»، والأدب هنا يأتي بالمعنى الواسع للأخلاق. (المترجم).

تتخطاه حتى تنتهي «... إلى أبرز المتشائمين بين نجوم الكوميديا الارتجالية». وفي النهاية يكون الأمر مذهلًا، ويصبح الأدب كله مرشحًا لذلك. ولا يتبقى منه سوى مقولات فردية غريبة، ومجموعة اقتباسات واستشهادات محشورة في كعكات حظ شجرية لا يقرأها أحد.

ولذلك أحصُر نفسي، بشيء من التعسف، في «الفلاسفة» المتشائمين، وإنْ كان هذا التمييز يظل مشكوكًا به. لكن نظرة خاطفة على تاريخ الفلسفة تكشف شيئًا مغايرًا تمامًا. فهناك فلاسفة يتعثرون ويسقطون أرضًا، وفلاسفة يسبُّون أنفسهم، وفلاسفة يهزأون بأنفسهم، وفلاسفة يتخلون عن الفلسفة بيد أنهم يظلون «فلاسفة». إنهم يستحقون ما هو أفضل من السير الذاتية، تلك الحكايات الكاملة والمملة التي ترصد التطور الفكري الملحمي. وحدها سِير القديسين سوف تفي بالغرض. لكن سِير القديسين أو حياة القديسين، نوعٌ غريب من الكتابة. وعلى النقيض من السير الذاتية الحديثة، فإن سِير القديسين لا تشتمل على كل شيء ولا تتبع ترتيبًا زمنيًّا. وعلى النقيض من الكتابة التاريخية الحديثة، فإن سِير القديسين غالبًا ما تتضمن روايات عن معجزات لم يشهدها الرواة بأعينهم، ولا تعبأ بالتحقق أو «الإثبات». والنموذج المثالي لهذا النوع من سِير القديسين الشهيرة في العصور الوسطى هو كتاب «الأسطورة الذهبية» الذي يسلط الضوء على لحظات بعينها في حياة القديس، ولكنه يفعل ذلك بطريقة حكائية تكاد تكون عشوائية، وذلك على نحو ما أصدق تعبيرًا عن الحياة. ويقول سيوران: «لا يشغَل المرء نفسه بالقديسين إلا لأن مفارقات الحياة في هذه الدنيا قد أصابته بالإحباط... دون أن يدرك أن هذه الرحلة ليست سوى رحلة جانبية عابرة، وأن كل ما في العالم يصيب بالإحباط، حتى حياة القديسين».

إن قائمتي، ولا شك، ليست جامعة ولا مانعة. ولم يغِب عن ذهني أن هؤلاء فلاسفة أعلام، وغالبًا ما يوضعون في مواضع الحظوة ذاتها، التي إما يرفضونها وإما يعجزون عن الارتقاء إلى مقتضياتها. (ألا ينبغي أن يكون

هناك، على سبيل المثال، تشاؤم على أساس العِرق أو النوع، أو تشاؤم سياسي أو اقتصادي أو تاريخي؟ بلا شك. بل إنني أحلم بتشاؤم هندي وتشاؤم صيني وتشاؤم أفريقي وتشاؤم نسوي وتشاؤم مثلي وتشاؤم تقني وتشاؤم بيئي... وفجأة أجدني شديد السخاء، كما لو أن التشاؤم يصبح حقًّا من حقوق كل إنسان، لمجرد كونه يرزح تحت عبء الوجود...). وفي الوقت نفسه، فإن ما أعتبره مثيرًا للاهتمام بالقدر ذاته في سيرة قديسيَّ الذين خاب أملهم، هو تلك الحالات التي تتقلص فيها «الفلسفة الكبرى»[(١)] إلى «فلسفة صغرى»، بل وحتى تلك المنزلة تصبح موضع شك.

في سِير القديسين، يُكنَّى القديسون عادةً باسم مكان ما، الذي إما أن يكون محل الميلاد أو موضعًا شهد تجربة زهدية ما. ولعل النهج الأمثل هو تسليط الضوء على تلك المواضع التي اضطُر فيها هؤلاء المتشائمون إلى عيش تشاؤمهم - شوبنهور في مواجهة قاعة محاضرات فارغة في برلين، ونيتشه صامتًا في طور النقاهة بمنزل شقيقته، وفتجنشتين يزهد في أستاذيته ويصبح بستانيًّا منعزلًا، وسيوران يصارع مرض الزهايمر في قبوته الصغيرة التي يكتب فيها في الحي اللاتيني.

---

(١) يميز المؤلف هنا بين لفظة «Philosophy» بحرف «پ» كبيرة في أولها، ولفظة «philosophy» بحرف «پ» صغيرة في أولها. والأولى هي الفلسفة المهمومة بقضايا ومباحث الفلسفة الكبرى، فيما تنهمك الثانية في شؤون الحياة اليومية. (المترجم).

نيقولا شامفور

١٠ سبتمبر ١٧٩٣

~ * ~

«حين يمعن المرء النظر في شرور الطبيعة، يكتسب ازدراءً للموت. وحين يمعن النظر في شرور المجتمع، يكتسب ازدراءً للحياة».

~ * ~

«المجتمع، الذي يُدعى العالم، ما هو إلا تنازع بين عدد هائل من المصالح التافهة، وصراع أبدي بين كل الأباطيل التي يتقاطع كل منها مع الآخر، ويصطدم كل منها بالآخر، ويتناوب كل منها على إيذاء وإذلال الآخر، ويُكفِّر في اليوم التالي، وقد ذاق مرارة الهزيمة، عن النصر الذي تحقق في اليوم السابق».

~ * ~

«يجب علينا أن نعرف كيف نمارس الحماقة التي تتطلبها شخصياتنا».

~ * ~

«التواضع الزائف هو أصدق الأكاذيب جميعها».

~ * ~

«ينظر الفيلسوف إلى «مكانته في العالم» كما ينظر التتار إلى المدن كسجن. إنها دائرة تتقلص بها الأفكار وتتقارب، وفي أثناء ذلك تسلب الرحابة والنمو من الروح والعقل. والرجل ذو المكانة الكبيرة في العالم يكون لديه سجن أكبر وأحسن زينة».

~ * ~

«الفلسفة، كما الطب، يمكنها أن تقدم عقاقير كثيرة وعلاجات مفيدة قليلة، وغالبًا ليس لديها أي أدوية موجَّهة».

~ * ~

«الحياة مرض يُسكِّنه النوم كل ست عشرة ساعة. دواءٌ مُسكِّن. والموت هو علاجها».

~ * ~

غالبًا ما يتحدث مؤرخو الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر عن الكُتاب الأخلاقيين، وهم كُتاب يعملون في إطار التنوير وبمناوأته، ويستخدمون العقل كي يسلطوا الضوء على كثير من السلوكيات الغريبة والعبثيات ومظاهر النفاق التي توجد في الثقافة «الحديثة». وقد برع الأخلاقيون الفرنسيون،

ككُتاب، في الأشكال المعتمِدة على الإيجاز، مثل تقديمهم ملاحظات لمَّاحة تتبلور في شكل شذرات ومقولات وإبيجراما وطُرف. وعلى الرغم من أنها ليست حركة ولا مذهبًا فكريًّا، فإن طريقة الأخلاقيين الفرنسيين تمتد عبر عقود من الزمن، وتجمع حولها طائفة واسعة من الكُتاب من أمثال فولتير ولا روشفوكو وجوزيف جوبير.

ومن بين الأخلاقيين الفرنسيين، لا أحد التقط روح الدعابة السوداء الساخرة كما فعل سباستيان روش نيقولا شامفور. وبينما يُعرف لا برويير بملاحظاته الأدبية عن الشخصية الإنسانية، ويُعرف لا روشفوكو بمقولاته المقتضبة واللمَّاحة عن الثقافة والمجتمع، يصوغ فوفينارجيز تعبيرات موجزة حول حدود المعرفة البشرية. وهناك مفكرون مثل فولتير معروفون بموقفهم الشبحي والساخر إزاء البشرية جمعاء. لكن شامفور هو من يجسد حقًّا الجانب المظلم من عصر التنوير ويقدمه من خلال شذرات قصيرة. إن شامفور هو أيضًا من نجده لاحقًا حاضرًا في صفحات مفكرين من أمثال كامو ولويس فرديناند سيلين وسيوران ونيتشه وشوبنهور ممن يستشهدون به.

كان شامفور إلى حد بعيد نتاج عصره، وكشأن كثير من الأخلاقيين الفرنسيين، لم تُنشر الكتابات التي يُعرف بها الآن خلال حياته. ولأنه وُلد لأم من عائلة نبيلة ولأب كاهن، فقد تخليا عن شامفور الصغير وهو رضيع، وآواه تاجر بقالة بالمنطقة وربَّاه مع زوجته. ولأنه كان طالبًا نجيبًا، فقد استهوته دراسة اللغات الكلاسيكية، وبدا عازمًا على قهر ظروفه مستعينًا بما يدرس وما يكتب. في سنوات صباه، تعَلم شامفور سريعًا كيف ينجو من التقلبات ويجتاز تعقيدات الحياة في البلاط الباريسي، وبات معروفًا ببراعته في التلاعب بالألفاظ خلال الحوارات وبحيَله الغرامية في مخادع النساء. وكما سيكتب لاحقًا: «لا بد للمرء أن يقر باستحالة العيش في العالم دون أن يمثل دورًا ما من حين لآخر». وعقب ذلك حظي المسرحيُّ الناشئ

بالرعاية، ونال التقدير من أرقى المؤسسات في فرنسا بما فيها الأكاديمية الفرنسية. لكن الحياة أظلمت في وجهه في أواخر العشرينيات من عمره، حين أصابته أمراض تناسلية كثيرة تركت أثرها على صحته ومظهره. وأدت حساسيته المتزايدة إزاء حياة البلاط إلى شعور متنامٍ لديه بالاغتراب وجنون العظمة، وأصبحت مسرحياته - حين يتم عرضها - تفشل نقديًا وماليًّا. وفي النهاية توقف تمامًا عن الكتابة، واضطُر إلى قبول وظائف تافهة لدى أفراد من الطبقة الأرستقراطية - بعد أن عمل لفترة من الزمن سكرتيرًا لشقيقة الملك ثم أمينًا للمكتبة الوطنية.

في هذه الفترة تقريبًا، يكتب شامفور المقولات التي يُعرف بها الآن. وتُقدم إحداها منهجًا من نوع ما كما يلي: «إن أفضل الفلسفات، فيما يخص العالم، يجب أن تمزج بين سخرية الدعابة الجيدة وبين الانغماس في الازدراء».

~ * ~

كان شامفور يبدو دائمًا عالقًا بالمكان الخطأ في الوقت الخطأ. وقد ولَّدت سنوات من التناحر السياسي لديه غضبًا شديدًا، حيث شهد، كما كثيرون، فترة الانتقال من حالة الثورة إلى عهد الإرهاب. ولأنه كان في طليعة مناصري الثورة ومن أشد المتمسكين بمبادئها المثالية، فقد بات مذمومًا لدى الفريقين، ووُجهت إليه اتهامات متباينة بأنه ثوري تخريبي وبأنه أرستقراطي مؤيد للنظام القديم. وعلى الرغم من العلاقات التي ربطت شامفور بالطبقة الأرستقراطية، فقد كان في طليعة هؤلاء الذين هاجموا النظام القديم، وأيدوا إقامة نظام جمهوري، وراح يخطب في الناس بالشوارع، وشارك في اقتحام الباستيل، واعتُقل غير مرة لرفضه التراجع عن مقولاته. ويُعَد إحدى الشخصيات النادرة التي اتُّهمت في تلك الفترة بمناصرة

الثورة ومعاداتها في آنٍ واحد. وهناك وفرة كبيرة في المقالات والرسائل والخطابات والمنشورات التي تشهد على السجالات السياسية التي تصيب من يتابعها بالدوار. ولذلك حين انقلبت الأوضاع، وجد نفسه مرة أخرى مع الفريق الخاسر.

~ * ~

كان المشهد الأشد ترويعًا في حياة شامفور هو مشهد موته – أو بالأحرى، فشله في الموت. ونظرًا إلى أن شامفور لم يكن قَطُّ ذا حظوة لدى النظام الحاكم، فإن انتقاداته للنظام الجديد لم تكن لتمر مرور الكرام. كان قد سُجن بالفعل بتهمة التحريض على الفتنة، وكان السجن الذي أُودِع فيه بحال مزرية ومشبَّعًا بالرطوبة ومليئًا بالقذارة والأمراض ويعج بسجناء يقبعون في ممراته وفي بئر السُّلم، حتى إنه أقسم ألا يعود إليه أبدًا. وفي أمسية شتوية، وبينما كان شامفور يستقبل على العشاء ضيوفًا كثيرين، جاءه أحد رجال الدَّرَك ومعه أمر بإعادة شامفور إلى السجن «للاستجواب». وفقًا لروايات من مصادر غير مباشرة، أتم شامفور بهدوء قهوة ما بعد العشاء قبل أن يقصد غرفته لتبديل الثياب ويطلب من مدبرة منزله أن تحزم حقيبته. أقفل باب الغرفة وأخرج مسدسًا من مخبئه وحشاه بالرصاص، ثم أطلق النار على جبهته. لكنه أخفق. تسببت قوة ارتداد الطلقة في اهتزاز ذراعه، فهشَّمت الرصاصة الجزء العلوي من أنفه وفجرت عينه اليمنى. وحين فوجئ بأنه ما زال حيًّا، أخذ شفرة حلاقة ذات مقبض عاجي وحزَّ حلقومه عدة مرات، وفي كل مرة يحز بقوة أكبر من سابقتها. غطت الدماء ثيابه، ولكن شيئًا لم يحدث. انتزع شفرة أخرى، ثم طعن نفسه في صدره وفخذيه وسمانتيه قبل أن يحاول قطع الرسغين. ومع ذلك بقي حيًّا. بدأ الدم يغطي الأرض ويتسرب من تحت الباب. وفي صرخة ألم أو إحباط،

أطلق شامفور أخيرًا آهة يأس قبل أن يسقط منهارًا على كرسي قريب، وقد خارت قواه ولكنه بقي حيًّا.

~ * ~

حاولت مدبرة المنزل، وقد أفزعها مشهد الدم، أن تفتح الباب. وحين لم يُفتح، ذهبت لإحضار زوجها الذي حاول فتحه بالقوة. وحين أعجزه ذلك، نهض شامفور بنفسه وفتح الباب - ووفقًا لرواية أحد أصدقائه، فقد ظهر لدى الباب «كما الشبح» قبل أن يرتد إلى الغرفة التي غطتها الدماء. نُقل شامفور إلى سريره، وحاولت مدبرة المنزل تضميد جروحه. وفي أثناء ذلك، خرج أحدهم لاستدعاء طبيب، وللمفارقة، الشرطة. رفض الشرطي الحضور وأحال الأمر إلى مفتش الحي. وصل المفتش في النهاية وبرفقته كاتب. استمعا أولًا لإفادة شرطي الدَّرَك، قبل الانتقال إلى سرير شامفور. ثم راح المفتش يوجه سلسلة من الأسئلة المعتادة إلى شامفور الذي كانت حنجرته تبرز من حلقومه. كان أحد الأسئلة هو: «مَن أصابك بهذه الجروح؟»، فأجاب شامفور بهدوء: «أصبت نفسي...»، واستمر الاستجواب، وعندما انتهى، طلب المفتش من شامفور أن يعيد قراءة إفادته ويعطي موافقته. وحين وصل الأطباء، فحصوا مواضع الإصابات وهزوا رؤوسهم يأسًا. وبالإضافة إلى الجروح العشرين التي أصيب بها، لم يتمكن الأطباء من تحديد موضع الرصاصة التي ما زالت برأس شامفور. وأمر الأطباء بألا يعاد شامفور إلى السجن. وهكذا تُرك شامفور كي يموت في سريره.

~ * ~

«الحضارة، في جوانب كثير منها، تشبه الطهي. حين يرى المرء على المائدة

أطباقًا خفيفة وصحية وحسنة الإعداد، يسعده حقًّا أن الطهي أصبح فنًّا من الفنون. ولكنه حين يرى المرق والبهريز والمعجنات المحشوة بالكمأ، يلعن الطهاة وفنهم الممرض...».

~ * ~

وعقب محاولة الانتحار مباشرة، وصل بيير لويس جينجيني، وهو صديق شامفور المقرب وأول من كتب سيرته، إلى المنزل. وبينما كان شامفور يملي أمنياته الأخيرة، قعد وقال: «ماذا تتوقعون؟ هذا ما يحدث حين يكون المرء أخرق اليدين. ولا يفلح البتة في عمل أي شيء، حتى في قتل نفسه».

~ * ~

إميل سيوران

١٤ فبراير ١٩٩٣

~ * ~

نحن نحب أن نتخيل الشعراء يموتون ميتة شاعرية. يتذكر المرء شيلي، الذي، يقال إنه بعد أن رأى قرينه، غرق قبالة ساحل توسكانا فيما كان يبحر بقاربه، دون جوان، إلى عرض البحر. أو نيتشه، الفيلسوف «المجنون» ومحطم الأوثان، الذي ينهار فجأة في تورينو حين يشهد حصانًا ينهال عليه صاحبه ضربًا بالسياط، ويطوق بذراعيه المثقلتين بالدموع رقبة الحصان. وفي منتصف فبراير من عام ١٩٩٣، يُعثر على عجوز نحيل البنيان وذي عينين حادتين وشعر مموج يجلس على رصيف أحد شوارع الحي اللاتيني في باريس. إنه تائه، ولا يتذكر عنوان مسكنه، ولا يستطيع التعرف على الحي الذي يقطنه. في النهاية يُصطحب إلى منزله. وما هي إلا بضعة أيام حتى يمتنع عن الطعام. وبعد حادث سقوط، يُنقل إلى المستشفى. تتناوبه حالة من شرود الذهن وحضوره، ولا يكاد يتعرف على أقرب الأقربين. يصمت عن الكلام كلِّيةً. وبعد دخوله في غيبوبة، يموت إميل سيوران في ٢٠ يونيو ١٩٩٥.

في حالة سيوران، فيلسوف الشفق الذي قال ذات يوم: «المولود ميتًا هو الأعظم تحررًا»، لم تأتِ النهاية بطريقة دراماتيكية، ولكن

تدريجية، بل وحتى روتينية. ظل الكاتب الروماني المَولد يصارع على مدى سنين مرض الزهايمر. كان فعل الكتابة يتعذر عليه شيئًا فشيئًا. وأصبح السفر وإلقاء المحاضرات وإجراء المقابلات عديمة الجدوى. بل وباتت تمشيةٌ بسيطة يقوم بها عبر الشارع تنطوي غالبًا على مجازفة غير محسوبة العواقب. لكن صمت سيوران الأخير كان، على نحو ما، أمرًا متوقعًا منذ مدة طويلة. في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، بات يواجه صعوبة في الكتابة، وإن ظلت موضوعات كتابته، وهي التشاؤم واليأس والكآبة ومعاداة للعالم، تكاد تصل إلى حد النشوة - تظهر في أعماله التي بدأت تتناقص تدريجيًا. والآن وقد تخطى عتبة السبعين من عمره، ظل هو ورفيقته سيمون بويه يعيشان في شقتهما الكائنة بشارع «ري دي لوديون»، حيث كان يقضي وقته بين المشي مسافات طويلة في «حديقة لوكسمبورج» وكتابة الشذرات في دفاتر مكتبة «جوزيف جيبير» الرخيصة وذات الألوان المتعددة التي ظل يستخدمها على مدى سنين، وكانت تتكوم على سطح مكتبه في قبوة كتابته ذات الإضاءة الخافتة بالطابق العلوي.

~ * ~

إن سيوران هو أحد هؤلاء الكُتاب الذين تعتبر مؤلفاتهم بمثابة سِير ذاتية مطوَّلة لعقولهم. وعلى الرغم من أنه كان يعيش حياة بسيطة، فإن آثار التقشف الحقيقي لدى سيوران يمكن العثور عليها في كتاباته. في عام ١٩٨٦، أصدر المشَّاء المنفرد الذي كتب ذات يوم يقول: «العزلة: يا لها من متعة يصبح فيها أي موعد موعدًا مع العذاب»، أصدر كتابًا عن الأصدقاء والزملاء بعنوان «تمارين في الإعجاب». وتضمَّن مقالات قصيرة كُتبت فيما بين خمسينيات وثمانينيات القرن الماضي، ودار كثير

منها حول كُتاب آخرين مثل صمويل بيكيت وخورخي لويس بورخيس وميرسيا إلياد وهنري ميشو.

وحول بيكيت، مثلًا، قال سيوران: «إنه لا يعيش في الزمن بل بموازاته، ولذلك لم يخطر لي قَطُّ أن أسأله عن رأيه في الأحداث الجارية». وحول بورخيس كتب: «لقد أصابه ابتلاء الشهرة. كان يستحق ما هو أفضل. كان الأحرى به أن يبقى في الظل، وفي نطاق اللامحسوس، كي يبقى عصيًّا على الوصف وغير مرغوب به كما الظل نفسه».

~ * ~

وبينما كان يغالب فقدانًا تدريجيًّا لذاكرته، أصدر سيوران في عام ١٩٨٧ كتابًا بعنوان «Aveux et anathèmes» (يمكن ترجمته إلى «اعترافات ولعنات»). ونظرًا إلى أنه يتألف من نُتف قصيرة ومتقطعة، تحمل الصياغة في الكتاب كل سمات الإلحاح الذي يكون لكلمة أخيرة تقال، ولكن مع الحيادية الهادئة غالبًا التي تكون لدى صانع وثائقيات: «كيف يهوِّن التقدم بالعمر كل شيء! في المكتبة أطلب أربعة كتب. أجد اثنين منها مطبوعين بحروف صغيرة للغاية، فأتجاهلهما دون حتى الالتفات لمحتويهما. وأجد الثالث مفرطًا في الجدية، ويبدو لي غير مشجع على القراءة. وأحمل الرابع دون اقتناع». وبعد نشره «اعترافات ولعنات» يقرر سيوران التوقف كلِّيةً عن الكتابة. لكنها بادرة كانت تراوده منذ مدة. وفي رسالة بعث بها إلى صديقٍ عام ١٩٨٠، يقول: «إن فكرة الكتابة في حد ذاتها تجعلني أشعر بالغثيان، ويصاحبها شعور مرير بالتقزز والإخفاق، وانعدام تام للرضا».

~ * ~

ذات يوم، وبينما كان سيوران العجوز في تمشيته المعتادة، أوقفه غريب وسأله: «أأنت سيوران بأي حال من الأحوال؟»، وجاء جوابه: «كنته فيما مضى».

~ * ~

في مقابلة أُجريت معه قرب نهاية حياته، يُسأل سيوران عما جعله يؤلف معظم كتبه بطريقة الشظايا والشذرات. وجاء جوابه:

> «لأنني كسول. كي يؤلف المرء كتابًا، لا بد أن يكون شخصًا نشيطًا. لكنني وجدت نفسي في كتابة الشظية. لقد ألَّفت نصوصًا كاملة وأكثر اكتمالًا، لكنها لا تستحق الذِّكر. في هذه الأيام لا أكتب إلا شذرات: أنا ضحية أفكاري. ولأن كل ما فعلته ككاتب هو الطعن في الأدب والطعن في الحياة والطعن في الإله، فأي فائدة إذن في أن أؤلف كتابًا في ذلك؟ كي أثبت ماذا بالضبط؟ هناك منطق حتمي أوصلني إلى هذه النقطة، ولكنه أيضًا شيء يلائم مزاجي...».

بل ويضيف سيوران إلى هذا ملاحظة حول طريقة الكتابة عبر الشذرات: تذهب إلى مطعم، وتسمع أحدهم يقول شيئًا على قدر كبير من الحماقة، ثم تعود إلى البيت وتدونه. في النهاية يصبح لديك كتاب. ويختتم قائلًا: «على أي حال، فإن ميزة الشذرة هي أنه لا فائدة ترجى من إثبات أي شيء. فالمرء يرمي بشذرة وكأنما يوجه إهانة».

~ * ~

هناك مشهد يرويه سيوران في مقابلات عدة، وهو مشهد يصلح غالبًا لفيلم سينمائي. في شتاء باريسي من عام ١٩٤٤، وطلبًا للدفء، يتجمع كثير من الكُتاب والفنانين والطلاب من قاطني الحي في المقاهي المصطفة على

جانبَي شارع «بوليفار سان جيرمان». في مقهى «دي فلور»، تختمر الوجودية جراء الغضب من الحرب، وتؤججها أفكار سياسية وفلسفية جديدة. وبالقرب من الدفء المنبعث من موقد المقهى، يجلس جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار مع آخرين حول طاولات رخامية صغيرة، يتجاذبون أطراف الحديث ويكتبون ويدخنون. وبجوار سارتر، يوجد شاب يرتدي ثيابًا أنيقة وبسيطة، وبالقرب منه علبة سجائر «جلواز». يجلس هناك في كل صباح وظهيرة ومساء - وعلى حد قوله: «وكأنه موظف». وحالما تُخرج دي بوفوار سيجارة، يقف بأدب، ثم ينحني ويشعلها لها، متلقيًا إيماءة شكر منها. وطوال الوقت، لا يكاد ينطق بكلمة، على الرغم من أنه يملأ دفاتره ليلًا بالكتابة. إنه لا يكاد ينطق بكلمة، وبدلًا من ذلك، يجلس مصغيًا.

وعلى الرغم من أن المشهد الذي يجري في مقهى «دي فلور»، قد يبدو حالمًا، فإنه ينبئ بالكثير عن سيوران كمفكر. وإذا كان سيوران قد مر بفترة احتضان، فربما كانت هذه هي - لكنها كانت احتضانًا للعداء، الذي أتاح للكاتب الناشئ أن يهاجم الوجودية ومنتقديها في آنٍ معًا. ويُظهر المشهد شخصًا، على الرغم من كونه يستمتع بقربه من المركز، فإنه يؤثِر دائمًا البقاء بمنأى، حتى لو كان ذلك يعني أن صوته ربما لن يُسمع. كما يظهر تحليه بقدر من الهدوء الخارجي والسكينة، وبإصرار على عدم الانغماس في اللحظة، التي، كما كل شيء، سرعان ما تمضي. لكن هذا الهدوء الخارجي يشتهي أيضًا شغفًا داخليًّا بـ«التفكير ضد الذات»، وهو نوع من التشكك المنتشي الموجه ضد العقل واللاعقل: «دعونا نتحدث بصراحة: إن كل شيء يمنعنا من التحلل الذاتي هو شيء ديني، وكل كذبة تقينا من يقيناتنا الخانقة هي كذبة دينية».

~ * ~

خلال السنوات الأولى التي أمضاها سيوران في باريس، كان عليه أن يتدبر مِنحًا دراسية صغيرة، ويؤدي أعمال ترجمة مؤقتًا كي يغطي نفقاته، وكان هو ورفيقة دربه سيمون بويه ينتقلان باستمرار في الحي اللاتيني من مسكن صغير إلى آخر. وفي المقابلات التي تُجرى معه، يحلو لسيوران أن يروي كيف كان يستخدم بطاقته الطلابية التي تَسَلمها من جامعة السوربون للحصول على وجبات رخيصة في قاعة الطعام الخاصة بالطلاب، وهي ممارسة واظب عليها لسنوات.

~ * ~

صدر كتاب سيوران «غواية الوجود» عن دار جاليمار للنشر في سنة ١٩٥٦ - وهي السنة نفسها التي شهدت اندلاع الانتفاضات الطلابية في بوخارست، وقبل سنة من وفاة والد سيوران، وكان كاهنًا بارزًا ومحافظًا. كان عنوان الكتاب يغازل الشهرة التي حظيت بها الوجودية في ذلك الحين، لكن سيوران كان حريصًا على نعت هذا الاتجاه بأنه «غواية»، وكأنما كان الكاتب المتشائم يُلمح إلى أنه يجدر بالمرء أن يقاوم الوجودية - بل والوجود ذاته. وفي الأسلوب يختلف الكتاب عن شظايا «تاريخ وجيز للتحلل»، وعن شذرات «قياسات المرارة»[1]، وذلك لأن سيوران في «غواية الوجود» يقترب من المقالة الكلاسيكية التي ابتدأها مونتني. وفيما يتعلق بموضوع كتاب «غواية الوجود»، فهو أن «توجد» يعني أن تقع في غواية الوجود - وأن تكون موجودًا في الزمن، وأن تكون موجودًا ولديك خطط، وأن تكون موجودًا في عالم يتمحور حول الإنسان ومن صنعنا،

---

(١) هذا هو العنوان الأصلي للكتاب، ولكن إحدى ترجماته إلى العربية تحمل عنوان «المياه كلها بلون الغرق». (المترجم).

وأن تكون مدفوعًا نحو مستقبل مجهول وتشتاق إلى ماضٍ مفقود. وإذا كان سيوران «متشائمًا»، فذلك لكونه يرفض أن يَمحض البشر ثقته، ناهيك بالإله أو بالعلم. وهذا وحده هو ما يميزه عن رفاقه الوجوديين - الذين هم دائمًا بمنأى، ولكنهم دائمًا مسموعون.

~ * ~

لقاء ودي يجمع أصدقاء ثلاثة خارج مقهى باريسي في شتاء عام ١٩٧٧. كانوا زملاء دراسة قدامى، وثلاثتهم رومانيون أصبحت فرنسا منفاهم. وهم يوجين يونسكو الكاتب المسرحي وأحد رواد مسرح العبث، وميرسيا إلياد مؤرخ الأديان وصاحب كتاب «المقدس والمدنس»، وبرفقتهما سيوران الفيلسوف المتمرد وكاتب «الشذرات». وعلى الرغم من أن مؤلفاتهم تُرَص فوق أرفف مختلفة بالمكتبات الباريسية، فإنها جميعًا تعالج القضايا الرئيسية للثقافة الأوروبية في حقبة ما بعد الحرب - أي الأزمة الوجودية التي نجمت عن فقدان الثقة في المُثل الإنسانية والاغتراب عن الذات وعن الآخر، وهي في جزء منها تُعزى إلى الإيقاع الفوضوي الذي يميز الحياة الحديثة، والسأم من هيمنة العقلانية العلمية والتقنية، والوعي الوليد بعالم جديد ومجهول، عالم ما بعد صناعي وما بعد حداثي في آنٍ معًا.

يبدو أن سيوران، وهو الآن في الستينيات من عمره، كان يعي تمامًا التحولات الجارية في الأوضاع، حيث بدأ الانعزالي المتسكع في الحي اللاتيني يُجري المزيد من المقابلات، بعضها كان للإذاعة والتلفزيون. وفي عام ١٩٧٩ نشر سيوران كتابًا حمل عنوانًا صارخًا هو «Écartèlement»، (وقد تُرجم إلى «Drawn and Quartered» - «مسحول ومقطَّع الأوصال»). صحيح أن المقولات التشاؤمية تظل حاضرة فيه، ولكنها حادة وذات طابع جدلي خلت منه الكتب السابقة الأكثر شعرية:

«والاكتئاب إذا تُرِك وشأنه، فسوف يلتهم كل شيء، حتى أظافر الأصابع.
لا وجود لعالمٍ آخر، ولا حتى لهذا العالم.
يكفي أن توجد وسط زحام حتى تشعر بأنك تصطف مع جميع الكواكب الميتة.
الوجود هو انتحال».

وتتسم شظايا سيوران بأنها هي ذاتها شديدة التشظي ومحطَّمة للغاية (ومحطِّمة) حتى لَتبدو أحيانًا أضأل من شظية، وأقرب ما تكون إلى جُسيم وذَرة غبار وحطام فكرة.

~ * ~

في يونيو من عام ١٩٦٩، نشرت صحيفة «لوموند» الفرنسية موضوعًا يغطي صفحتين متقابلتين تحت عنوان «سيوران أو العدمي المتأمل». جاء العنوان غامضًا، وكان من الصعب معرفة هل المقصود به هو الثناء أو اللوم.

~ * ~

في مطلع أكتوبر من عام ١٩٦٥، كتب ميرسيا إلياد ما يلي في يومياته:

«لقد وجدت في كتاب هنري إليكساندر جونو «عادات وتقاليد شعوب البانتو» هذه التفاصيل التي سوف يُسَر لها سيوران. في منطقة قبائل التونجا، يشكو زعيم إحدى القرى التي «خيَّم عليها الحزن وأمست خاوية على عروشها» للآلهة عَوزه وشقاءه، ويقدم لهم بصاقه تقربًا وزلفى. ويسمى ذلك «قربان المرارة». يأمل الرجل أن يستدرَّ شفقة الآلهة بهذه الهدية الباعثة على السخرية».

~ * ~

نشر سيوران «مثالب الولادة» في عام ١٩٧٣، وكان يعيش فترة من الفقد والرفض. قبل بضع سنوات، توفيت والدة سيوران وشقيقته. وانتحر صديقه المقرب الكاتب المسرحي آرثر أداموف. وشهدت السنة أيضًا وفاة صديق حميم آخر له، وهو الفيلسوف الوجودي جابريل مارسيل. وبعد عام من ذلك، انتحر أيضًا الشاعر بول سيلان، الذي كان قد ترجم أعمال سيوران إلى الألمانية. وكانت فترة من الرفض. رفض سيوران باعتزازٍ مساعي عديدة لإعانته بالمال، فضلًا عن جوائز أدبية عديدة كانت لكثير منها قيمتها المالية المعتبرة (وتتردد حكاية مفادها أن بيكيت كان يقرض سيوران المال ويوبخه على رفضه هذه الجوائز). وفي أثناء ذلك، ظل سيوران يعيش حياة بسيطة في شقته المستأجرة، ويعمل في مكتبه الصغير المكدس بالأشياء، ويكتب في دفاتره الملونة، ويمشي كثيرًا.

في «مثالب الولادة»، يتصدى سيوران لمعضلة فلسفية قديمة، ألا وهي مشكلة وجودنا ها هنا، في اللحظة الراهنة، مُلقى بنا في وجود لم يطلبه المرء ولم يرغبه، وفي عالم يصعب علينا قبوله أو رفضه بكل جوارحنا. واليوم، في السنوات الأولى من الألفية الجديدة، يناقش الأكاديميون قضايا تَغير المناخ والاستدامة والزيادة السكانية في العالم، فيما ينخرطون في نقاشات فلسفية يحددون فيها مواقفهم من الإنجابية واللاإنجابية. وهي نقاشات ليست بالجديدة، ففي سبعينيات القرن الماضي، كان هناك صحفيون ومفكرون يطرحون بشكل متكرر قضايا من قبيل «القنبلة السكانية» و«نهاية التاريخ». ولكن في «مثالب الولادة» يظل سيوران متشككًا في مثل هذا التركيز المقصور على الحاضر - وتتساءل كتاباته عما إذا كانت مثلُ هذه القضايا ليست سوى عَرَض لعلاقة قلقة مع فنائيتنا - وهي المرحلة الأخيرة من «السقوط في الزمن» بالنسبة إلى الثقافة الغربية. إن «مثالب الولادة» هو تأمل مطول في إشكالية الزمن والزمانية التي تنشأ مع شعور سيوران المدمر في وقت متأخر ذات ليلة، وفي الثواني البطيئة لصراعه المزمن مع الأرق: «الثالثة

صباحًا. أستشعر هذه الثانية، ثم هذه، ثم تلك التي تليها: أضع موازنة عامة لكل دقيقة. لماذا كل هذا؟ لأنني وُلدت. إنه نمط خاص من الأرق الذي يفضي إلى إدانة واقعة الولادة».

~ * ~

هناك كُتاب يبحث المرء عنهم، وهناك كُتاب يعثر المرء عليهم مصادفة. ويمكن القول إن سيوران من الصنف الثاني. وهكذا جاءت معرفتي الأولى بمؤلفاته، وذلك فيما كنت طالبًا يتسكع ذات ظهيرة ممطرة في متجر لبيع الكتب المستعملة في سياتل. وفي قسم كتب الفلسفة بالمتجر، استرعى انتباهي كتاب بسبب عنوانه: «تاريخ وجيز للتحلل»[1]، وكان محشورًا بين «شيشرون» و«كونفوشيوس». كان كعبُه متغضنًا، وصفحاته مطوية الزوايا، ويحمل اسم مؤلِّف لم أسمع به من قبل. لكن العنوان كان موحيًا، ويحمل معاني التحلل والتدهور والتفسخ - لا تحظى هذه الموضوعات بأي رواج يُذكر، ولا سيما في عصر مثل عصرنا، الذي أصبحنا فيه مفتونين بمقدرة العلم على تفسير كل شيء، بقدر ما نحن مهووسون هوسًا دينيًّا تقريبًا بكتب إرشاد الذات. ولكن كيف للمرء أن يكتب تاريخًا «وجيزًا» عن التحلل؟ ألا يوجد شيء متناقض في جمع «تاريخ» ما للتحلل؟ حتى العنوان الفرنسي الأصلي - «الوجيز في التحلل» - يستثير الفضول. في اللغة الفرنسية، غالبًا ما يخصص المرء كلمة «وجيز» لعناوين ملخصات الكتب المدرسية - مثل: «الوجيز في الأدب الفرنسي»، أو «الوجيز في الرياضيات». لكن «الوجيز في التحلل»؟ بدا لي من قبيل العبث أن يُكتب مثل هذا الكتاب. ولذلك اشتريته.

لم يَعُد متجر الكتب المستعملة ذاك الذي اشتريت منه الكتاب موجودًا،

---

(١) تُرجم إلى العربية بعنوان «رسالة في التحلل». (المترجم).

لكني ما زلت أحتفظ بنسختي من كتاب سيوران. كان كتاب «تاريخ وجيز للتحلل» الذي صدر في الأصل في عام ١٩٤٩، هو أول كتاب ألَّفه سيوران بالفرنسية. وقد وُلد سيوران في قرية رازيناري الرومانية الصغيرة عام ١٩١١، والتحق بالجامعة في بوخارست حيث تَعرف على مؤلفات بسكال ونيتشه. وخلال فترة وجوده بها، جمعته علاقة صداقة بكل من ميرسيا إلياد ويوجين يونسكو، اللذين سيظلان صديقين له مدى الحياة. وفي أوائل ثلاثينيات القرن الماضي، حصل سيوران على منحة دراسية في برلين. وهناك وجدت كراهيته للبشر، التي كانت حاضرة بالفعل في كتاباته، أفقًا أرحب في سياسات اليمين المتطرف التي سادت تلك الحقبة. ولدى عودته إلى بوخارست، أظهر دعمه لتنظيم «الحرس الحديدي»، وهو تنظيم سياسي يميني متطرف، ثم نشر كتابه «تحولات رومانيا»، وفيه يستعين بنثر حماسي في سبيل استثارة ما يعتبره «غضبًا مقدسًا». لكن مع انصرام العقد، نبذ سيوران آراءه السياسية، بل والسياسة برمتها، فيما سيظل حتى نهاية حياته يعبر عن شعور بالمرارة والندم على نشاطاته التي مارسها خلال هذه الفترة. (وبلغة غامضة كدأبه، كتب ذات يوم في رسالة إلى إلياد عام ١٩٣٥: «منهجي في السياسة هو: أن أناضل مخلصًا في سبيل ما لا أؤمن به»).

وبحلول أواخر الثلاثينيات، وبدعم من المعهد الفرنسي في بوخارست، انتقل سيوران إلى باريس، في ظاهر الأمر كي يكتب أطروحته الفلسفية. بدلًا من ذلك، كان يمضي كثيرًا من أيامه يجوب ضواحي المدينة بالدراجة. كانت أيام فقر شديد. ولم يكن يواجه صعوبة في تدبير نفقاته فحسب، بل كان يعيش طواعية في منفى ثقافي ولغوي، ويكتب بلغة ليست لغته وبأسلوب يعتمد اعتمادًا كاملًا على الطريقة الشذرية، في ليالٍ طوال كابد فيها الأرق. وفي أربعينيات القرن الماضي، وفي خضم أجواء الحرب، بدأ سيوران مشروعًا بعنوان «Exercices négatifs» (تمارين سلبية)، ثم غيَّر العنوان إلى «Penseur d’occasion»، قبل أن يستقر أخيرًا على «الوجيز في التحلل».

ونتج عن المشروع نحو ثمانمائة صفحة مخطوطة وأربع نُسَخ لمخطوطات مختلفة من الكتاب.

عندما نُشر كتاب «تاريخ وجيز للتحلل» بالفرنسية، بدا أنه أحدث استقطابًا بين القراء. فقد نعتَه كثيرون بالإفراط في الكآبة والتشاؤم، وبأنه لا يتوافق البتة مع حالة التفاؤل الإلزامي التي سادت الثقافة الأوروبية في حقبة ما بعد الحرب. وأثنى عليه آخرون لهذه الأسباب تحديدًا (في مراجعته للكتاب، ادعى المحرر موريس نادو أن سيوران «نذير شؤم بلا منازع...»). وما زال بالإمكان حتى اليوم الشعور بالتأثير الفريد الذي يُحدثه كتاب سيوران. وكما نيتشه، يبدو سيوران عاقدًا العزم على فضح مظاهر النفاق التي تنطوي عليها الحالة البشرية. ولكن سيوران، على النقيض من نيتشه، لا يقدم مَخرجًا قَطُّ أو حتى كلمات مشجعة. ومع ذلك، تشيع في نثر سيوران حماسة من نوع ما على الرغم من نزوعه للتشاؤم واليأس: «وهذا لأنه لا يستند إلى شيء، بل ويفتقر إلى أي حجة نتذرع بها كي نستمر في الحياة»؛ «كيف تخترع دواءً لعلاج الوجود، وكيف تكمل هذا العلاج الذي لا ينتهي؟ وكيف تتعافى من ولادتك؟»، وتشيع في كتابات سيوران نشوة بالأسوأ، وهي تتجلى في أصواته العديدة - التي تصبح فلسفية حينًا وشاعرية في حينٍ آخر، ولكنها دائمًا جدلية. إن كتاب «تاريخ وجيز للتحلل» هو في الوقت ذاته عمل فلسفي، ولكنه أيضًا أغنية من نوع ما، وشهادة متضاربة ومضطربة على «اللاجدوى الرائعة» التي تمثلها البشرية - والتضارب الذي يعبر عنه الكتاب، كما يقال، أوثق صلة اليوم بعصرنا الذي تسوده سيناريوهات نهاية العالم.

وعلى الرغم من أن كتبه تحظى اليوم بالتقدير، وعلى الرغم من نَيله جوائز أدبية عديدة تقديرًا لها - رفضها جميعها تقريبًا - فقد ظل سيوران يحافظ دائمًا على مسافة بينه وبين عالم الأدب والفلسفة. وقد حال التجريب المتعمد في الأسلوب إلى حد كبير دون نَيل أعماله التقدير الذي تستحقه بسهولة: فلا هي فلسفة ولا هي شعر ولا مقالة ولا رواية ولا بيان حزبي ولا اعتراف.

ولعله كان يفضلها على هذا النحو. وبطبيعة الحال، في عصرنا الرقمي، أصبح العثور على كتب سيوران أمرًا ميسورًا للغاية. ولكن السؤال الوجيه الذي يطرح نفسه هو: لماذا قد يُقدِم المرء على قراءتها؟ بهذا المعنى، لعل الطريقة الوحيدة للقاء مع سيوران هي أن نعثر عليه، كما لو كان ذلك عن طريق المصادفة أو بتدبير الأقدار.

~ * ~

جوزيف جوبير

٣١ أكتوبر ١٨١٨

~ * ~

ورد في أحد دفاتر جوبير ما يلي: «أنا قيثارة ريح. لم تمر من خلالي أي ريح».

~ * ~

سورين كيركجور

٢٥ سبتمبر ١٨٥٥

~ * ~

هنالك حقيقتان جديرتان بالانتباه في حياة كيركجور. الحقيقة الأولى، أنها لم يحدث بها سوى القليل مما يستحق الذِّكر، والثانية، أن ذلك قد ورد مفصلًا وموثقًا إلى أبعد مدى، لا سيما من قبل كيركجور نفسه. وخلافًا لمجايليه من الكُتاب الآخرين، لا نجد لدى كيركجور أسفارًا يقصد فيها وجهات بعيدة، ولا حكايات عن مغامرات غرامية، ولا نوبات من تعاطي العقاقير والإدمان، ولا فترات سجن تعاقبه به الدولة، ولا حتى حكايات محزنة عن لوثة جنون أو محاولة انتحار، ولا حتى حكايات طريفة عن طرده من مدرسة أو تمرده على سلطة أبويه. ما يجده المرء لدى كيركجور هو شخص انعزالي استحوذت عليه تمامًا العلاقة الروحانية البسيطة بين فرد وحيد هش وإله خفي لا يبالي. وقائع الدراما جميعها تجري بالداخل.

لا ريب أن كيركجور قد عاين ذلك النوع من تقلبات الأيام التي يمر بها كل امرئ، ولكن هذه التقلبات في نهاية المطاف ما هي إلا «طبع الحياة». نحن نعرف أنه وُلد في كوبنهاجن لأسرة ميسورة عُرف فيها الأب بتزمته والأم بلطفها، ونعرف عن تعليمه، وعجزه عن تحديد مسار حياته المهنية،

وثروته التي ورثها والاستقلالية التي منحته إياها، وخِطبته ثم فسخه الخطبة، ومشاركته في نقاشات عصره الفكرية - ولا سيما ما يتصل منها بالدين والمؤسسات الدينية، ونعرف عن مرضه ثم وفاته عن عُمرٍ صغير نسبيًّا، هو الثانية والأربعون، وبالطبع نعرف عن مؤلفاته التي غالبًا ما كانت تخرج بأسماء مستعارة.

على الرغم من أن كيركجور نفسه لم ينكر قَطُّ هذه الملامح العادية التي اتسمت بها حياته، فقد بذل أيضًا قصارى جهده لإبراز ما اعتبرها أحداثًا بارزة في مسيرة تطوره كفرد: الاضطراب العاطفي الذي شاب علاقته مع ريجين أولسن وخِطبته لها من عام ١٨٤٠ إلى ١٨٤١، وأزمته العابرة مع صحيفة «ذا كورسير» (القرصان) الدنمركية في عامَي ١٨٤٥ و١٨٤٦، ثم انتقاداته الحادة التي وجهها للكنيسة الدنمركية في عام ١٨٥٤. ولكن كيركجور كان هو مَن ابتدأ هذه الأحداث أكثر من أي أحد آخر. كان كيركجور البالغ سبعًا وعشرين سنة، كيركجور العاشق، هو مَن طلب ريجين للزواج، وهو مَن قام، بعد عام، بفسخ خِطبته لها لأسباب التبست حتى عليه (كان كيركجور يعزو ذلك إلى «سوداويته»). وبعد بضع سنوات، كان كيركجور الكاتب هو من جلب على نفسه التشهير متعمدًا حين تحدى صحيفة «ذا كورسير» أن تتهكم منه علنًا إن استطاعت. والشيء نفسه سوف يحدث قرب نهاية حياته حين اتهم الكنيسة الدنمركية بخنق «المسيحية الحقَّة» للفرد.

لم «يبتدئ» كيركجور الوقائع الدرامية التي شهدتها حياته فحسب، ولكنه راح، عن طيب خاطر، وربما بحماس، يكابدها أيضًا. ومع ذلك، فإن هذه الدراما لا تُعتبر، نسبيًّا، بالغة المأساوية. لم يواجه كيركجور سوى خطبة فسَخها وصحافة رديئة تعرَّض لها. ويوشك المرء أن يقول: «ومَن لم يجرب ذلك؟». ومع ذلك، فإن كتاباته المنشورة ويومياته تُظهر اهتمامًا شديدًا لديه بالفروق الدقيقة بين التعطش للروحانيات وعبثيات

الحياة العصرية، وهو ما لا يملك المرء إزاءه إلا أن يتأثر به. وهناك شعور بأن كيركجور كان، غالبًا، ما يجيد تضخيم الأمور وتهويلها.

~ * ~

هل كانت حياة كيركجور حياة حافلة بالإثارة وضئيلة الشأن، أم كانت حياة قليلة الإثارة وجليلة الشأن؟ إذا كانت الثانية، فهل ذلك سبب يفسر حياة الصدق والروحانيات التي عاشها؟ ويجعل حياته اليومية أشبه بمسرحية آلام؟ يبدو أن يومياته التي ملأت مجلدات تقدم أجوبة على هذه الأسئلة. وفي تدوينة مبكرة يكتب قائلًا: «الوجود كله يفزعني، من أضأل ذبابة وحتى سر التجسد. كل شيء مستغلق عليَّ، ولا سيما نفسي. والوجود بأسره فاسد في نظري، ولا سيما نفسي».

وإذا كانت حياة كيركجور قد خلت من أي شيء غير عادي، فإن العناية التي أَولاها كُتاب سيرته لأدق تفاصيلها تصبح مذهلة. تضم سيرة والتر لوري التي تأتي في مجلدين ويستشهد بها كثيرون، أكثر من ألف صفحة، فيما تنقص سيرة جواكيم جارف، وهي الأحدث، قليلًا عن تسعمائة صفحة (وعلى النقيض تُعتبر سيرة أليستير هاناي الكلاسيكية سيرة مختصرة، حيث تأتي في خمسمائة صفحة).

أما كيركجور نفسه، فإن يومياته تضم تدوينات عديدة يضعها تحت عنوان «عن نفسي أتحدث»، على الرغم من أنها غالبًا ما تتلخص في صيغة واحدة: «... لولا سوداويتي، ما كنت لأصبح فيلسوفًا، ناهيك بأن أكون مسيحيًّا...».

~ * ~

اعتاد كيركجور في معظم سني حياته أن يسجل يومياته. وعلى الرغم من أنه ألَّف كتبًا وكتيبات ومقالات وتقارير صحفية، تظل يومياته هي أبرز أعماله التي يُعرف بها الآن. تضم طبعة «يوميات سورين كيركجور»، التي نشرت في عام ١٩٠٩ وظلت تصدر، بإشراف محررين مختلفين، حتى عام ١٩٧٠، تضم ثلاثة عشر جزءًا في خمسة وعشرين مجلدًا. ومع ذلك، فإن بداية المشروع تعود إلى أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر (١٨٥٠) بُعيد وفاة كيركجور، حين شرع شقيقه، أسقف ألبورج، في جمع العديد من الأوراق والمخطوطات غير المنشورة. وتصدى محررٌ آخر للمشروع في منتصف ستينيات القرن التاسع عشر (١٨٦٠)، ولكنه تخلص، على نحو غريب، من النسخ الأصلية بعد نسخها. وحينما يضيف المرء إلى هذا حقيقة أن العديد من تدوينات يوميات كيركجور تخلو من التواريخ، يصبح واضحًا أنه إذا كان كيركجور لم يضع القارئ عامدًا في متاهة، فمن المؤكد أنه قد فعل ذلك دونما قصد.

على الرغم من ضخامتها، فإن اليوميات نفسها لا تُعتبر في حد ذاتها «عملًا»، وقد ظل السؤال حول كيف ينبغي للمرء أن يقرأها يشغل بال الباحثين المهتمين بكيركجور على مدى أجيال. هل ينبغي قراءة اليوميات جنبًا إلى جنب مع الأعمال المنشورة، أم يمكن قراءتها وفقًا لشروطها؟ وفي الحقيقة، فإن السؤال حول تصنيف اليوميات ما زال غير محسوم. لم يترك كيركجور أي وصية صريحة بشأن نشر يومياته، وعلى الرغم من أننا ربما نميل لاعتبارها «كتابات شخصية»، فإن هناك أمثلة عديدة يبدو فيها واضحًا أن كيركجور يخاطب جمهورًا متخيلًا. وبالنظر إلى ولع كيركجور بالتأمل الذاتي، ونشره أعمالَه بأسماء مستعارة اختارها بعناية مثل: «يوحنا الصامت» أو «فيكتور الناسك»، فمن الممكن تمامًا أنه كان يعرف وكان يأمل أن تكون اليوميات هي «عمله» الأخير الذي سوف يُنشر بعد وفاته.

وتتفاوت اليوميات في محتواها ما بين ملاحظات الحياة اليومية ومقالات فلسفية مكثفة، وبين مسودات رسائل يبعث بها إلى أصدقاء وزملاء. وتكشف مجموعة من تدوينات اليوميات عن نمط السوداوية الذي يُعرف به كيركجور الآن:

«في أعماق كل شخص يقبع خوفٌ من أن يغدو وحيدًا في هذا العالم وأن ينساه الإله وتغفل عنه ملايين الملايين من العائلات الكبيرة. يُبقي المرء هذا الخوف بمنأى عنه حين يرى من حوله أناسًا كثيرين ممن تربطه بهم قرابة أو صداقة. لكن يظل الخوف موجودًا على الرغم من كل ذلك. ولا يكاد المرء يجرؤ على التفكير بما سيكون عليه حاله إذا ذهب عنه كل هذا الخوف»[١].

لكن هذه التعليقات الجادة والمشحونة بالقلق غالبًا ما تقابلها شكاوى سطحية من نوبات إمساك تصيبه، أو من أحدث موضوعات النميمة التي تشغل بال المجتمع. ثم هناك تعليقات يبدو وكأنها تنبعث من مكان مغاير تمامًا: «بين الحين والآخر تنتابني رغبة غريبة في أن أثب بقدميَّ وثبة تصالبية، وأن أطقطق أصابعي ثم أموت».

~ * ~

كان كيركجور نادرًا ما يغادر مدينة كوبنهاجن الأحب إلى قلبه، على الرغم من أنه كان يمتلك نموذجًا مصغرًا للكرة الأرضية ومراجع كثيرة من بينها كتاب «الأطلس العام المختصر للعالم أجمع». وكان الاستثناء الوحيد في ذلك هو زيارته برلين التي أمضى فيها كيركجور الشاب خمسة أشهر بين عامَي ١٨٤١ و١٨٤٢. وكان دافعه إلى هذه الرحلة دافعًا فلسفيًّا. لم يكن تأثير المثالية الألمانية محسوسًا داخل ألمانيا فحسب، بل امتد إلى

---

(١) الاقتباس هنا من كتاب «مفهوم الفزع» لكيركجور. (المترجم).

خارجها أيضًا، ولأنه كان طالبًا فقد وقع كيركجور لفترة قصيرة تحت تأثير سحرها. وأججت قراءته هيجل، على وجه الخصوص، اهتمامه بها مما جعله يقرر الذهاب إلى برلين بغرض الدراسة. وفور وصوله إلى هناك، حضر محاضرات ألقاها كثير من الفلاسفة المختصين بتراث هيجل ممن كانوا ذائعي الصيت في ذلك الحين، وإن أصبحوا الآن طي النسيان. حضر كيركجور أيضًا محاضرات فريدريش شيلنج، الذي أثار بتحوله إلى الدين أيضًا اهتمام الدنمركي السوداوي. ولكن سرعان ما تحول الأمل إلى خيبة أمل، حيث وجد كيركجور أن صبره ينفد وانتقاداته تتزايد والضجر يتملكه.

وهناك مشكلة أخرى كانت تواجهه أيضًا. على الرغم من أن كيركجور كان يهوى التعرف على أحياء برلين خلال إقامته فيها، فإن نقص المراحيض العامة بها جعل قيامه بنزهات طويلة في أنحاء المدينة أمرًا محالًا. كان حتمًا يقطع المسافة بين عدة كتل سكنية مشيًا على قدميه، ثم يعود مضطرًّا إلى المنزل لقضاء حاجته. (لا شك أن ذلك كان يرجع جزئيًّا إلى السيل المتواصل من القهوة التي كان يتلذذ بها كيركجور على مدى ساعات النهار). وللمرء أن يتساءل: هل قلَّص قِصر فترات مشيه من الجهد الفكري للفيلسوف المشَّاء؟ هل كانت هناك أفكار عميقة أو رؤى مهمة انقطع حبل اتصالها فجأة جراء ذلك الإلحاح الذي تسببه مثانة ممتلئة؟ خيبة أمل إضافية وليست أقل فلسفية.

~ * ~

في مقابل كل وثبة هنالك سقوط. وفي أغلب الأحيان، ربما، يُطلب منا أن نجد حكمة بالغة في وثبة الإيمان لدى كيركجور، والتي باتت الآن مبتذلة. لكن ماذا عن فن السقوط؟ يقدم كيركجور في كتابه «خوف ورعدة» الأمثولة التالية:

> «إن فرسان اللانهاية هم راقصو باليه وقادرون على الوثب. إنهم يرتقون لأعلى ثم ينزلون مرة أخرى، وهذا أيضًا ليس تسلية تعيسة، وليس مما

لا يحب المرء رؤيته. لكن في كل مرة ينزلون فيها، لا يستطيعون أن يتخذوا من فورهم الوضعية المطلوبة، ويختل توازنهم لبرهة، وهذا الاختلال هو ما يثبت أنهم غرباء في هذا العالم. وقد يزيد ذلك أو يقل وضوحًا بحسب براعتهم، لكن حتى أبرع هؤلاء الفرسان لا يمكنه إخفاء هذا الاختلال. والمرء لا يحتاج إلى رؤيتهم وهم في الهواء، بل يحتاج فقط إلى رؤيتهم في اللحظة التي يلامسون فيها الأرض ثم ينزلون عليها - وبعد ذلك يقدرهم حق قدرهم. لكن أن تستطيع النزول على نحو يبدو المرء خلاله قادرًا على أن يقف ويمشي من فوره، وأن يحول الوثبة إلى حياة وإلى مشية، وأن تُعبر حتمًا عن السمو في المشية - وحده هذا الفارس يستطيع ذلك، وهذه هي الأعجوبة الفريدة».

~ * ~

وحكى الكاتب والباحث إسرائيل ليفين، الذي كان بمثابة باحث مساعد لدى كيركجور في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، عن ولع معلمه بالقهوة. كان كيركجور، عقب تناولهما طعام العشاء، يفتح خزانة مليئة بمجموعة مذهلة من أطقم الفناجين. وبعد أن يختار بنفسه طاقمًا، كان كيركجور يسأل ليفين عن أيها يفضل، ولماذا. ثم يضع كيركجور فنجانه الفارغ، ويصب السكر فيه حتى يصنع شكلًا مخروطيًّا أنيقًا يظهر من أعلى الفنجان. بعد ذلك، تُسكب القهوة الثقيلة والساخنة والسوداء فوق هذا المخروط السكري، ثم يزدرده بسرعة في بضع جرعات. وعندئذ يمكن لعمل الليلة أن يبدأ.

~ * ~

لم تكن نسخة كيركجور من السوداوية منبتَّة الصلة عن تجارب حياته اليومية، ولا سيما عن تجارب جسده. كان كيركجور طوال حياته يعاني وعكات

صحية بسيطة، ولكن يومياته ورسائله بدأت قرب نهاية أربعينيات القرن التاسع عشر تتحدث أكثر فأكثر عن كدر دائم لديه بسبب شكواه من التهاب المفاصل وآلام الظهر والإمساك وإجهاد العين والصداع والبواسير وعسر الهضم والأرق واضطرابات المعدة ونوبات الدوار. وسوف تصبح الأمور أشد وطأة لاحقًا، ولكن حتى في هذه المرحلة المبكرة يشير كيركجور إلى الأثر المتنامي لمحدودية الجسد، والتذكير المزعج على الأغلب بفنائية الجسد التي تتجلى يوميًّا في انصرام الوقت ونظام الانتقالات والإيماءات والأعمال اليومية:

> «كما السقيم الذي يتوق إلى التخلص من ضماداته، فكذلك روحي السليمة تتوق إلى أن تخلع عنها وهَن جسدي... وكما ذلك الشخص الذي يواجه خطرًا في البحر، فيما يحاول آخر يواجه الغرق أن يمسك بساقه، فيدفعه بعيدًا بكل ما أوتي من قوة، فكذلك جسدي يشبه ثقلًا ثقيلًا يشدني إلى أسفل ويتشبث بروحي، وسوف ينتهي بالموت».

في هوامش اليوميات يضيف كيركجور: «... الضمادات المبتلة والمشَبعة بالعرق هي الجسد ووهنه...».

~ * ~

قبل عام من وفاته، شرع كيركجور في قراءة شوبنهور. كانت حالته الصحية تسوء، وبدا أن اكتشاف شوبنهور يقدم للدنمركي المريض عونًا عابرًا، مما أطلق تحولات جديدة في تفكيره الديني. وعلى الرغم من أنه كان قد سمع حتمًا عن شوبنهور من قبل، يظل جديرًا بالذِّكر أن كيركجور أخذ في نحو عام ١٨٥٤ يشتري جميع الكتب المتوفرة سواء من مؤلفات شوبنهور أو لآخرين يكتبون عنه – وذلك في وقت كان العاشق السابق للكتب قد تخلى إلى حد بعيد عن عادة شراء الكتب.

في تدوينة تعود إلى يوميات هذه الفترة، يحرص كيركجور على تجلية كلٍّ من أوجه التشابه والاختلاف، مشيرًا إلى شوبنهور بأحرفه الأولى «A.S»، وإلى نفسه بالأحرف الأولى «S.A» (سورين آبيي): ««A.S» (ملحوظة: من الغريب أنني أُدعى «S.A». لا شك أننا مرتبطان أيضًا ارتباطًا عكسيًا)...».
ولأن كيركجور كان قارئًا انتقائيًا لشوبنهور، وأسأمه تحوُّل الأخير إلى التصوف والرفض المنبثق عن الزهد، فإنه ينتقد شوبنهور لا لكونه متشائمًا، ولكن لكونه لم يكن متشائمًا بما يكفي:

> «وسواء يصل المرء إلى الزهد عبر تفكير أصيل يبصر من خلاله بؤس كل شيء أو، على نحو أدق، البؤس الذي هو الوجود، أو يصل عبر المكابدة إلى النقطة التي يبدو فيها أن الخلاص هو أن يدع كل شيء يبلغ نقطة الانهيار، ويقطع صلته بكل شيء، حتى بالوجود نفسه - أي بالرغبة في الوجود (بالزهد والإماتة)...».

لم يحقق شوبنهور ما يكفي من النجاح. فقد شكك في الدين والفلسفة، لكنه لم يشكك في «دينه» الخاص وفلسفته الخاصة - «هنالك فئة من الأشخاص في الفلسفة، يشبهون تمامًا الكهنة في الدين».

هذه، بالطبع، هي النقطة القصوى التي تبهر كيركجور، ولا سيما كيركجور في سنواته الأخيرة الذي يكتب كلًّا من «تمرين في المسيحية» و«هجوم على العالم المسيحي». في أي نقطة يتوقف الجدال الفلسفي ويبدأ الإيمان الديني؟ ويأتي اتهامه الذي وجهه إلى شوبنهور مقتضَبًا ومشوبًا بالتهكم: «ولكن كيف إذن يعيش شوبنهور؟ إنه يعيش في ملاذه ويطلق من حين إلى آخر سيلًا من الوقاحات - التي يتم تجاهلها، ثم ينتهي الأمر». ويضيف متهكمًا: «لو أتيح لي أن أتحدث معه، فأنا واثق أنه كان إما سيرتجف وإما سيضحك إذا أخضعته لهذا المقياس».

~ * ~

قرب نهاية عام ١٨٤٧، عندما انتهى كيركجور من كتابه «أعمال الحب»، تَذَكر كيف شغله عمله عن جولاته المعتادة حول كوبنهاجن. وعلى سبيل التعويض، قرر كيركجور أن يدلل نفسه بجولات ريفية تقلُّه فيها عربة تُحجز خصيصًا إلى خارج المدينة. كانت بعض الوجهات أبعد من غيرها مثل فريدنسبورج وفريدريكسبورج وشمال زيلندا، فيما كانت وجهات أخرى أقرب إلى منزله مثل بلفيو ودير بارك وفورتونن ولينجبي ونيهولتي وررودرسدال أو هيرميتاج وهي اسم على مسمى[1]. وكان يسمي هذه الرحلات «حمَّامات الهواء».

~ * ~

على الرغم من أن كتاباته سوف تصبح أكثر نزوعًا للتقشف في رؤيتها الروحية، فقد كان كيركجور مولَعًا بمقتنياته الشخصية. وكان هذا هو الحال لا سيما مع مجموعته الخاصة من عصي المشي والمظلات، وهو ما يتضح من نص قصير ساخر كتبه في أربعينيات القرن التاسع عشر «مظلتي، رفيقتي»:

> «هبَّت عاصفة رهيبة. كنت أقف وحيدًا بعد أن تخلى عني الجميع في منطقة كونجنز نيتورف؛ ثم انقلبت ضدي مظلتي هي الأخرى. وجدتني في حيصَ بيصَ، لا أدري هل يجب أن أفلتها وأدعها بجريرة هذا الفعل الغادر وأُصبح كارهًا للبشر أم لا. لقد أصبحت عزيزة على قلبي حتى إنني دائمًا ما أحملها سواء كان الطقس ممطرًا أو مشمسًا؛ ولكي أثبت لها أن حبي ليس نابعًا من محض دوافع نفعية، فإنني أحيانًا ما أسير جيئة وذهابًا في غرفتي وأتصرف كما لو كنت بالخارج، فأتكئ عليها تارة وأفتحها تارة ثم أسند ذقني إلى خطافها وأضعها على شفتي، وهكذا دواليك».

وعلى الرغم من أن زملاء كيركجور كانوا يجدون متعة في المشي برفقته

---

(١) الإشارة هنا إلى المعنى الذي يحمله اسم بلدة «هيرميتاج» (Hermitage)، والذي يعني «صومعة». (المترجم).

والتحدث معه، فإنهم كانوا غالبًا ما يندهشون من الإيماءات التي كان كيركجور يقوم بها مستخدمًا عصا مشيه وتنم عن حيوية بالغة، مما يعطي انطباعًا بأنه فيلسوف مبارزة وسقراط يتقلد سيفًا. (كان رفاقه في جولاته يلاحظون دائمًا تنوع عصي مشيه، بداية من عصي الخيزران المصقول وحتى عصي المظلات المصنوعة من الحرير الأسود). ومع ذلك، وعلى الرغم من تأملاته السوداوية ويأسه الديني، كان فيلسوف شوارع كوبنهاجن يجد متعة في نزهته اليومية. وفي أحد أعماله المبكرة وهو «مفهوم التهكم»، وصف كيركجور سقراط بأنه «سيد المقابلة العابرة».

~ * ~

وإذا كان كيركجور قد أبدى في أواخر حياته اهتمامًا بشوبنهور، فإن ذلك لم يكن يُعزى فقط إلى تشاؤم الأخير - بل أيضًا إلى خصومتهما المشتركة مع الفلسفة الأكاديمية الألمانية، التي كان هيجل رمزها. وكان شوبنهور قد كتب هجائيات كاملة في المثالية الألمانية، وبلغ به الأمر حد وصف هيجل بأنه «ثرثار»، وهو هجاء شعري ذكره كيركجور:

> «يا لها من كلمة رائعة: أستطيع أن أحسد الألمان عليها. وينبع تميزها الشديد أيضًا من كونها تُستخدم صفةً وفعلًا. ويستخدمها آرتور شوبنهور أفضل استخدام - ونعم، يجب عليَّ القول إن شوبنهور كان سيضع نفسه في مأزق لو لم تكن لديه هذه الكلمة، ما دام عليه أن يتعرض للفلسفة الهيجلية وجماع الفلسفة الأكاديمية».

ربما تكون تعزية ضئيلة. ولكن كيركجور يتابع قائلًا:

> «نحن الدنمركيين لا توجد لدينا هذه الكلمة، ولكن لا شيء مما تصفه الكلمة يمثلنا نحن الدنمركيين. أن تكون كيس هواء ليست سمة من سمات الشخصية الوطنية الدنمركية. ومع ذلك، فنحن الدنمركيين لدينا علة أخرى، علة مُناظرة، واللغة الدنمركية أيضًا لديها كلمة مقابلة، وهي

كلمة ربما لا توجد في اللغة الألمانية: «بالع الهواء». إنها كلمة تُستخدم في الأصل مع الخيل، ولكن يمكن استخدامها بشكل عام. هذا هو الحال بالضبط - ألماني يصنع الهواء، ودنمركي يبتلعه».

ومن هنا، وعلى الرغم من خلافاتهما والكراهية الفلسفية المشتركة التي تجمع كلا المفكرَين: «... إذا كان على شوبنهور أن يواجه أكياس هواء، فإنني لديَّ بالعو هواء يجب أن أتصدى لهم».

~ * ~

ولدى عودته من المستشفى الذي دخله للعلاج من شلل جزئي أصابه، قال كيركجور لصديق: «الأطباء لا يفهمون مرضي. إنه نفساني، وهم الآن يريدون علاجه بالطرق الطبية المعهودة».

~ * ~

كان كيركجور يميل إلى وصف نفسه بأنه سوداوي أكثر منه متشائمًا. كانت السوداوية هي مكمن قوته وسر انهياره في آنٍ واحد معًا. ولكن وراء هذه السوداوية يكمن ارتياب خفيٌّ بأن الأمور لن تمضي على ما يرام، ومن ثَمَّ فالأحرى بالمرء ألا يكلف نفسه على الإطلاق عناء تجربة الزواج والحياة الأسرية والحياة الأكاديمية والحياة المهنية والدعوة الدينية... يؤدي المرء كل شيء ولديه إحساس عميق بالهشاشة، كما لو كان كل شيء قد ينهار في أي لحظة. وإذا كان علينا أن نعبر بمصطلحات كيركجورية، فقد نقول إن تشاؤم كيركجور تشاؤم قائم على «لامشروطية شَرطية»، بما يعني أنه سيوجد دائمًا سببٌ ما يجعل الأمور لا تمضي في الاتجاه المنشود، إن لم يكن الآن، فلاحقًا. وهذا يضع المرء أمام أحد خيارين: إما أن يدخل في

نوبة من التفكير الخرافي تجعله يستبِق الأمور التي لا تمضي على ما يرام ويُسقط نفسه بنفسه، أو يدخل في نوبة من اللامبالاة ولا يفعل أي شيء.

وعلى مدى حياته، واجه كيركجور نوبات اكتئابية حادة، كان خلالها حتى عدم فعله أي شيء بمثابة عبء لا يُطاق. ويقول في تدوينة في يومياته تعود إلى خريف عام ١٨٣٧:

> «لست أرغب في الاستلقاء، لأنني إن فعلت فإما سأظل مستلقيًا أمدًا طويلًا، ولا رغبة لي في ذلك، وإما سأنهض مرة أخرى، ولا رغبة لي في ذلك أيضًا. ولست أرغب في ركوب الخيل، ففي ذلك مشقة كبيرة لا يحتملها خمولي. أريد أن أخرج في جولة بالعربة فحسب، وأدع أماكن كثيرة تنساب من حولي، فيما أستمتع بهزهزة مستمرة ومريحة، وأتوقف عند كل بقعة جميلة، لا لشيء إلا لكي أستمتع بخمولي. وتصبح أفكاري ودوافعي عقيمة عقم شهوة مخصي...».

ويختتم كيركجور التدوينة بقوله: «... ولا أرغب حتى في كتابة ما دونته للتو، ولا أرغب في محوه...».

~ * ~

في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أصبح كيركجور مولَعًا بحب الكتب وهو لا يزال طالبًا. كان يتردد كثيرًا على متجر «رايتزيل» للكتب ويبتاع كتبًا في الفلسفة واللاهوت والأدب وغيرها من الموضوعات. وكانت أرفف مكتبته تضم أعمالًا كلاسيكية مثل: «الكوميديا الإلهية» لدانتي، وحكايات هوفمان، ومسرحيات شكسبير، وأشعار بايرون وهاين وبترارك. ومن بين كتب اللاهوت والروحانيات الكثيرة كانت توجد «خواطر» بسكال وأعمال جان باول[1].

---

(١) اسم مستعار للروائي الألماني يوهان باول فريدريش ريشتر، وقد اشتُهر برواياته وقصصه المازحة. (المترجم).

وفي الفلسفة الألمانية يجد المرء هيجل وشليجل ونوفاليس. وبالإضافة إلى مجموعة أعمال تنتمي للأدب الدنمركي والسويدي الحديث، كان كيركجور يبدو مولَعًا أيضًا بالحكايات الخيالية بداية من «ألف ليلة وليلة» وحتى حكايات «الأخوان جريم». ثم هناك كتب «متنوعة» مما يصعب تصنيفها، وهي غالبًا مجهولة المؤلف مثل: كتاب «أسئلة غريبة»، أو ذلك الكتاب مبهم العنوان «متعة الاستماع والقراءة».

وبحلول نهاية العقد، قُدر عدد الكتب التي تضمها مكتبة كيركجور الشخصية بنحو ألفَي كتاب، كانت أغلفتها في الغالب من الجلد، وكعوبها مغطاة بورق مصقول مزخرف. وكانت هذه العناية بالتفاصيل تظهر في الطريقة التي يقرأ بها كيركجور كتبه. هنالك صفحات مطوية من طرفها (وأحيانًا من أعلاها وأحيانًا من أسفلها)، فيما تتخلل نصوص الكتب ملاحظات دُونت بعدة ألوان من الحبر (أسود وأزرق وأحمر) بالإضافة إلى هوامش بالقلم الرصاص.

وبعد ستة أشهر تقريبًا من وفاة كيركجور، عُرضت مكتبته الشخصية في مزاد. وفي ٨ أبريل، بدأ مزادٌ استمر ثلاثة أيام على ٢٧٤٨ كتابًا، وأقيم في الغرف الخالية بمنزل كيركجور الأخير. شهد المزاد حضورًا كبيرًا ضم الجميع بداية من تجار الكتب بالمنطقة وحتى ممثلي المكتبة الملكية. وأشار أحد تجار الكتب إلى أن كل شيء في مكتبة كيركجور بِيع بـ«ثمن باهظ»، بل إن مؤلفات كيركجور نفسها بيعت بثلاثة أضعاف ثمنها في المكتبات.

~ * ~

ظل كيركجور طوال خريف عام ١٨٥٥ يكابد اعتلالات مزمنة بجهازه الهضمي. وذات مرة، وبينما كان في إحدى جولاته العديدة في المدينة، شعر فجأة بخدَر أصاب ساقيه، ثم بألم شديد امتد حتى أصابع قدميه. وفي مرة

أخرى، وبينما كان يهزهز نفسه على كرسيه بالمنزل، أصاب الخدَر النصف الأسفل من جسده كاملًا، وانزلق من كرسيه على الأرض لا يستطيع حراكًا. وكانت أعمال بسيطة مثل ارتدائه سروالًا أو حذاءً، تصبح أحيانًا أعمالًا مؤلمة على نحو لا يطاق. وعاودته نوبات الإمساك السابقة وتقلصات المعدة. أصبح التبول صعبًا - أو بات يتبول ويتغوط لاإراديًّا. كان الأطباء يقدمون تشخيصات مبهمة أو بدلًا من ذلك ينفضون أيديهم يأسًا. وبحلول شهر أكتوبر، وبينما أصبحت حالته أكثر تقلبًا، نُقل كيركجور إلى غرفة بمستشفى «رويال فريدريك»، حيث سيمضي الشهر الأخير من حياته. وجاءت التشخيصات مرة أخرى غير قاطعة. وخلال زيارات أفراد العائلة والأصدقاء، كان الأطباء يستخدمون بانتظام حقنًا مُلينة لعلاج الإمساك. ونشب خلاف بين سورين وشقيقه بيتر حول تناول الأول للقربان الأخير. ولن يتصالحا من بعده أبدًا. والآن وقد أصابه شللٌ شبه كامل يمتد من خصره حتى قدميه، بذل الأطباء محاولة أخيرة عبر تعريض الجزء السفلي من جسم كيركجور لصدمات كهربية، ولكن دون جدوى. وفي نهاية المطاف، وبحلول الأسبوع الأول من نوفمبر، تباطأت نبضات قلبه، وامتد الشلل لأعلى جسمه حتى بلغ وجهه، فعجز عن تحريكه. وبعد ذلك بمدة قصيرة، غشيته غيبوبة، ثم وافته المنية في يوم ١١ نوفمبر.

وفي شهر فبراير أرسل هنريك لوند رسالة إلى بيتر كيركجور، أوضح فيها أن متعلقات أخيه كانت تشمل خصلات من شَعر سورين. وسأل لوند بيتر عما إذا كان يريد إحدى «ذخائر الشَّعر» هذه. وبعد شهر رد بيتر بالإيجاب.

~ * ~

في سبتمبر من عام ١٨٥٥، وكان يعاني تدهورًا في صحته وإن ظل يحتفظ بمعنويات عالية، كتب كيركجور في يومياته يقول: «قدرُنا في هذه الحياة

أن نبلغ أعلى درجات السأم من العالم». لكن هذا ليس كل شيء، كما يؤكد كيركجور؛ إن السأم هو الوسيلة وليس الغاية. «إن مَن يبلغ هذه الدرجة هو الذي يمكنه أن يؤكد أن الرب هو مَن أوصله إلى هناك، بدافع المحبة، وأنه قد اجتاز امتحان الحياة وأصبح مؤهلًا للأبدية».

لكن ليس واضحًا هل كان كيركجور يضع نفسه ضمن هذه الزمرة المختارة أو لا. وفي السطر التالي، يقول: «لقد جئت إلى العالم عبر جُرم، جئت خلافًا لإرادة الرب... وعلى قدر الجرم يكون الجزاء: وهو أن تُجرَّد من كل رغبة في الحياة، وأن تبلغ أقصى درجات السأم من العالم...».

ثم يدخل آخرون ضمن نوبة كيركجور الاكتئابية: «معظم الناس في هذه الأيام مصابون بوهنٍ شديد ومحرومون أشد الحرمان من البركة، حتى إن العقوبة ببساطة لا تُطبق عليهم. وهم ضائعون في الحياة ويتشبثون بها، ومن اللاشيء يصبحون لاشيئًا، وتذهب حياتهم هباء». وفي الفقرة الأخيرة، يكتب كيركجور بوضوح: «ماذا يريد الرب إذن؟»، ويأتي جوابه: «... الرب جالس في الجنة يستمع. وفي كل مرة يسمع أحدًا يحمده، أحدًا هو مَن أوصله إلى أعلى درجات السأم من العالم، يقول لذاته: هذا هو الصوت...».

كانت هذه هي آخر تدوينة في يوميات كيركجور. بعد ذلك لا يوجد سوى الصمت الذي نجم عن المرض والشلل وفقدان الوعي.

~ * ~

يستدرُّ كيركجور قدرًا ضئيلًا من الشفقة، ولكنه يحقق قدرًا كبيرًا من التعاطف. بل حتى إن عدم اكتراثه يصبح ملهمًا على نحو غريب.

~ * ~

يبدو أن كيركجور قد صاغ في وقت مبكر العديد من الموضوعات التي كانت ستشغله فيلسوفًا وكاتبًا. وفوق ذلك، فقد وجد عدة طرق بارعة لتقديم أفكاره، وذلك عبر العديد من الأسماء المستعارة وإحالاتها الببليوغرافية الخفية. وفي إحدى تدوينات يومياته، يكتب كيركجور البالغ من العمر ثلاثين عامًا ما يمكن أن يكون بمثابة مرثية له:

> «بعد مماتي، لن يجد أحد في أوراقي (وهذا هو عزائي) أي ذِكر لذلك الشيء الذي كان يملأ عليَّ حياتي حقًّا، ولن يجد أي كلمات تصف كينونتي الأعمق التي تُفسر كل شيء، وما الذي يجعل، في غالب الأحيان، ما يسميه العالم صغائر، أحداثًا عظيمة الشأن عندي، والتي أعتبرها أنا أيضًا عديمة الشأن حالما أنزع عنها الرسالة الخفية التي تفسرها».

~ * ~

جاكومو ليوباردي

١ ديسمبر ١٨٢٨

~ * ~

لم يكن لدى جاكومو تالديجاردو فرانشيسكو دي ساليس سافيريو بيترو ليوباردي أي سبب حقيقي يجعله متشائمًا، ويعتبره كثيرون أعظم شعراء إيطاليا منذ دانتي. وُلد ليوباردي لعائلة نبيلة وتلَقى تعليمًا مرموقًا - على الرغم من أن والده كان مدمنًا بشدة على عادة القمار التي كانت تقابلها عند والدته قسوة وجفاء مساويان. كان بيت العائلة الفخم يقع في ريكاناتي، على الساحل الشرقي لإيطاليا - ولكن ليوباردي ظل على مدى سنين لا يتمنى شيئًا قدر ما يتمنى مغادرته. وفي رسائله وقصائده لا يُعبر سوى عن فزعٍ من الأجواء الخانقة ذات الأفق المحدود والطبيعة الصارمة التي عاشها في هذا البيت. وفي سنوات المراهقة، حاول ليوباردي الهرب من البيت مرات ومرات، لكنه كان دائمًا ما يُمسَك به ويوضع رهن ما يشبه الحبس المنزلي. وفي إحدى تدوينات يومياته، يشير ليوباردي إلى بيته باعتباره «صومعة، أو بالأحرى سجنًا». وفي تدوينة أخرى يفكر في الانتحار، لكنه لا يجد في نفسه شجاعة الإقدام على ذلك، مفضلًا بدلًا من ذلك «الدفن حيًّا» الذي يعيشه في ريكاناتي.

ولم يكن يخفف من وطأة هذا الشعور المزعج بالسأم إلا مكتبة العائلة، التي كان ليوباردي الشاب ينكبُّ عليها بنهم، مما مكنه في النهاية من قراءة

وكتابة اليونانية واللاتينية بسهولة (بالإضافة إلى الإسبانية والفرنسية والألمانية والعبرية). وساهمت الفترة التي أمضاها ليوباردي تحت رعاية كاهن محلي، ثم مع عالم في الكلاسيكيات، في تعزيز اهتمامه باللغة وفقه اللغة. وخلال هذه الفترة يبدع ليوباردي قصائده الأولى، ويحيا في السنوات التالية حياة شاعر جوال يجوب بولونيا وفلورنسا وميلانو ونابولي وبيزا وروما. وأصبحت تلك القصائد التي اشتهر بها منذ ذلك الحين مكونًا أساسيًّا ضمن مناهج الأدب الإيطالي في الكتب المدرسية، مثل قصائد: «في اقتراب الموت»، و«اللانهائي»، و«فوق قبر دانتي»، و«الانبعاث»، و«الذكريات»، و«أسبازيا». وبعد نشر قصائده حظي ليوباردي بحرية العيش بعيدًا عن ريكاناتي، لكن مرضه المتكرر وضعف بنيانه منعاه من عمل الكثير، حيث كان يصاب على فترات متفرقة بالعمى، وكانت تعتريه نوبات اكتئابية متواترة، بالإضافة إلى معاناته الربو والسعال المستمر ومتاعب في الكلى والأمعاء والاستسقاء واعوجاجًا في عموده الفقري، ولا شك أن ذلك جعل «هذا النوم المضطرب والشاق الذي نسميه الحياة» أشد عناء. ووافت المنية ليوباردي في أثناء تفشي وباء الكوليرا في عام ١٨٣٧، بعد سنوات قليلة فقط من نشره قصيدة «كانتي»، وهي عمله الذي يشتهر به اليوم أكثر من غيره.

~ * ~

تحتوي إحدى قصائد ليوباردي على البيت التالي:

«لم يقدم القدر لجنسنا البشري

أي هدية سوى الموت»

وهي قصيدة بعنوان «إلى ذاته».

~ * ~

حتى حين يسلِّم المرء بأن محنة ليوباردي تتجسد في حياة عائلية معطوبة ومرض متكرر، يظل من الصعب معرفة جذور نظرته التشاؤمية - وهي نظرة تظهر بالفعل في قصائده الأولى، التي كتبها بين سن الخامسة عشرة والثامنة عشرة. وكان إحساسه بأنه عالق يولِّد لديه تقلبات مزاجية شديدة الحدة، تتراوح ما بين الانكباب على الدراسة بنهم واللامبالاة المصحوبة بالخمود. ومن بين اعتلالاته الصحية، كان الاكتئاب هو أكثر ما شغل بال ليوباردي، وقد وصفه ذات يوم بأنه «تلك الكآبة العنيدة والسوداء والبشعة والوحشية التي تستنزفني وتسحقني وتلتهمني، والتي تشتد كلما أقبلت على الدراسة، وتزداد إذا ما انقطعت عنها». وظل المراهق ليوباردي مقتنعًا على مدى شهور بأنه يحتضر «في الليل، في غمرة الحزن»، حيث كتب قصيدة تصور إحساسه بالفناء:

«لذلك يجب أن أموت، وإن كنت لم أرَ
الثلج فوق السطح عشرين مرة كاملة
وما رأيت طيور السنونو تبني أعشاشها عشرين مرة»

ويمكن للمرء، بالطبع، أن يعزو تشاؤم ليوباردي ببساطة إلى قلق المراهقة - ولكن إذا كان الأمر كذلك، فسيكون التشاؤم بمثابة نغمة يعزف عليها في جميع كتاباته اللاحقة تقريبًا، سواء كانت شعرًا غنائيًّا أو مقالات فلسفية. لكن الشيء الذي يتغير بالفعل عبر السنين هو نبرة تشاؤم ليوباردي. في القصائد الأولى، كان تشاؤم ليوباردي مشبَّعًا بالرهبة واليأس، كما في «حياة العزلة» أو «رعب الليل». ومع ذلك، تتناقض هذه القصائد مع قصائد لاحقة مثل «الفكرة المهيمنة»، والتي تؤكد دائمًا قيمة الحياة، حتى في مواجهة المأساة والموت. ولكن ليست كل كتابات ليوباردي تحوي هذا النوع من النهاية المشجعة. ويقول مقطع من أحد الحوارات التي يتضمنها كتاب «المؤلفات الأخلاقية القصيرة» أو «Operette morali»: «والحياة شيء لا يساوي شيئًا، وعلى الإنسان،

الذي يفكر في ذاته، ألا يشغل باله بها كثيرًا، سواء بحفظها أو بمغادرتها».
وقد ذهب باحثون إلى حد وضع أنماط للتشاؤم في كتابات ليوباردي، حيث يمر «التشاؤم الليوباردي» بمراحل مختلفة هي تشاؤم فردي، يظهر في القصائد الأولى التي يدور فيها الصراع بين الرغبات الفردية وقيود العالم؛ وتشاؤم تاريخي يأسف على آفات المجتمع المعاصر، وتشاؤم ميتافيزيقي يتأمل في هشاشة الحياة ذاتها وطبيعتها الزائلة؛ بل وفي مرحلة أخيرة، تشاؤم بطولي، وفيه يؤكد ليوباردي قيمة الحياة، على الرغم من المعاناة المبثوثة فيها.

ولكن كيف لنا إذن أن نفسر آراء ليوباردي حيال الموت وقد أضحت صارخة وعبثية في آنٍ واحد معًا؟ «هنالك حقيقتان لن يصدقهما معظم الناس أبدًا: الأولى، أنهم لا يعرفون شيئًا، والثانية، أنهم ليسوا شيئًا. وهنالك حقيقة ثالثة، وهي تنبثق عن الثانية، ومفادها أنه لا شيء يمكن أن يُرتجى بعد الممات».

~ * ~

إن تشاؤم ليوباردي هو تشاؤم دالٌّ على العصر الذي عاش فيه. وكما العديد من المفكرين المتشائمين، فهو نتاج لعصر التنوير وفي الوقت نفسه جدار منيع أمام مبادئه التي تمجد العقل والتقدم العلمي. ويتجلى ذلك أكثر ما يكون في مجلده الضخم، الذي يحوي متفرقات كتبها ليوباردي، والمعروف باسم «زيبالدوني».

بدأ ليوباردي التدوين في كتاب «زيبالدوني» في صيف عام ١٨١٧، وواظب على ذلك حتى عام ١٨٣٢، أي قبل وفاته ببضع سنوات. كانت كلمة «زيبالدوني» نفسها توحي بنوعٍ ما من المتفرقات العامة أو بخليط من هنا وهناك. وكانت تشير أيضًا إلى نوعية كُتب الكُنَّاشات التي وُجدت

بكثرة في أواخر العصور الوسطى، وهي كُتب يمكن أن تحوي كل شيء بداية من الشعر والأدعية وحتى الحسابات وقوائم البقالة. ويبدو أن فكرة «زيبالدوني» قد خطرت لدى ليوباردي بإيحاء من كاهن محلي، هو دون جوزيبي أنطونيو فوجل، الذي قال ذات مرة: «ينبغي لكل رجل أدبٍ أن تكون لديه فوضى مدونة مثل هذه، أي دفتر يحوي مجاملات ومجادلات ومقتطفات ومقترحات معاكسة وتعليقات...». واختار ليوباردي في أول الأمر لدفتره عنوان «أفكار حول أشكال مختلفة من الفلسفة والأدب البديع»، ولكنه استقر لاحقًا على «زيبالدوني» الأشد تكثيفًا، ولربما الأصدق.

ويُعَد كتاب «زيبالدوني» أحد أبرز الأعمال غير المكتملة عبر تاريخ الأدب. وحسبما يشير عنوانه، فهو بالفعل كنز ضخم وغير متجانس يحوي شذرات وتدوينات يومية ومقالات موجزة وملاحظات وتأملات، ونقدًا أدبيًّا وحكايات وأمثولات واقتباسات من قصائد لشعراء آخرين، ومقتطفات شائعة من أغانٍ شهيرة. وإجمالًا، تتألف مخطوطة «زيبالدوني» من أكثر من أربعة آلاف صفحة. ولا يكاد يخلو منها موضوع - مثل الشعر والفلسفة وفقه اللغة والسياسة والدين والعلم والفن والحب والثقافة، وحتى مصطلح «زيبالدوني» نفسه. وفي المخطوطة، يكشف ليوباردي الكثير لا عن مسيرته كمفكر وشاعر فحسب ولكن كشخص، حيث نقرأ فيه عن ولعه بجولات المشي منفردًا وتناوُل الطعام بمفرده (وهذه الأخيرة، كما يوضح هو نفسه، كانت موضع استهجان لدى قدماء الرومان واعتبروها لاإنسانية)؛ وكيف كان مهمومًا في أغلب الأحيان، بل وخرافي التفكير، كلما سيق إليه حظ سعيد، وكيف كان يؤثِر التحديق في السماء ليلًا وهو في العراء ووسط ظلام دامس، لا عبر شرفة أو نافذة؛ وكيف يشعر وهو في منتصف العمر بالحرج والاشمئزاز لدى رؤية شعراء أو علماء يصغرونه سنًّا ويعرضون أفكارهم. ولكن أيًّا كان موضوع النقاش، فإن النبرة الواضحة «للتشاؤم الليوباردي»

تغلف كل كتاباته. وتوجد تدوينة مبكرة تلخص الكثير من هذا التشاؤم الذي يقوم على الملاحظة:

> «إن تخيُّل أننا أهم مخلوقات الطبيعة وأن العالم قد خُلق لأجلنا هو نتاج طبيعي لحب الذات الذي هو بالضرورة متأصل فينا وبالضرورة لا حدود له. لذلك من الطبيعي أن يتخيل كل نوع من الحيوانات الأمر نفسه، إن لم يكن صراحة، فمن المؤكد بشكل مشوَّش وأساسي. وهذا يحدث لدى كل نوع أو جنس إزاء جميع الأنواع أو الأجناس الأخرى. ولكن، بالمثل، فإن الشيء نفسه يظهر لدى الأفراد...».

وهناك تدوينة أخرى، لاحقة، تمثل نموذجًا للطريقة التي كان ليوباردي يستخلص بها الإلهام من جولات مشيه اليومية:

> «في جولاتي منفردًا حول المدن، يثير بداخلي النظر إلى الغرف التي أراها من الشارع أدناها، عبر نوافذها المشرعة، أحاسيس ممتعة للغاية وصورًا مبهجة. وهذه الغرف نفسها لن تثير بداخلي أي إحساس إذا ما رأيتها من داخلها. أليست هذه صورة للحياة البشرية ولأحوالها ومسراتها ومباهجها؟».

وعلى الرغم من أنه لم ينشره خلال حياته، فإن «زيبالدوني» بكل وجوهه يمثل وثيقة دالة على تعقيدات التفكير التشاؤمي وتناقضاته. لكنه ليس عملًا مكتملًا، وتشير جميع الشواهد إلى أن ليوباردي لم يُرِده كذلك. ويشوبه التكرار ويحوي تناقضات ومحاولات حِجاج فلسفي فاشلة وأفكارًا غير مكتملة وقصائد لا يورد منها إلا نصفها، وقبل كل شيء، نبرة متصلة من الشعور بالحزن والتأزم. ومع ذلك، فإن «زيبالدوني» ليس مجرد اعتراف، وفي حقيقة الأمر، فإن ما يجعله يثير هذا القدر من الاهتمام هو ذلك المزيج الغريب من السوداوية المبثوثة فيه والإبداع المفعم بالحيوية وغالبًا بالنشوة.

~ * ~

وتجدر الإشارة إلى أنه، على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت ليوباردي وتشاؤمه، فإن ليوباردي نادرًا ما يستخدم المصطلح. وبدلًا من ذلك، كان أكثر ميلًا لاستخدام مصطلح التفاؤل، وانتقاده انتقادًا حادًّا، لا سيما كما يظهر لدى فلاسفة من أمثال ليبنتس. وفي إحدى تدويناته، يبدأ ليوباردي بالتأكيد التالي: مكتبة سُر مَن قرأ

> «كل شيء شر. وهذا يعني أن كل ما هو شيء، هو شر، وأن كل ما هو موجود شر، وأن كل شيء لا يوجد إلا لأجل غاية شريرة... لا خير إلا في منعدم الوجود ولا خير إلا فيما ليس بشيء... الوجود كله وجماع العوالم الكثيرة الموجودة والكون، ليست سوى لطخة وبقعة في الميتافيزيقا... الوجود، بطبيعته وجوهره وعموميته، هو خلل وشذوذ ومسخ... هذه المنظومة، وعلى الرغم من تعارضها مع أفكارنا التي تقول إن النهاية لا يمكنها إلا أن تكون خيرًا، ربما يمكن إثباتها أكثر مما يمكن إثبات أفكار ليبنتس والبابا وغيرهما، والتي تقول إن كل شيء خير...».

كان ليوباردي يطعن في التفاؤل - على الرغم من أنه لم يكن يؤمن حقًّا بالتشاؤم. وهذا، بالطبع، ما يفعله جميع المتشائمين - فهم لا يثبتون التشاؤم بقدر ما ينفون التفاؤل. وفي النهاية، يعرفون في سريرتهم أن كلا الموقفين بهما ما يعيبهما.

~ * ~

في السابع عشر من أبريل عام ١٨٢٧، كتب ليوباردي في دفتره (منوهًا إلى أنه يوافق يوم ثلاثاء ويوم الفصح):

> «أنا، مثلًا، أجلس عاطلًا معظم الوقت، وأميل إلى الخمول، إما بحكم الطبيعة أو العادة، ومع ذلك، وفي خضم هذا الخمول الشديد، وحين تسنح لي في يومٍ فرصة لبدء عمل ما، ويكون لديَّ الكثير الذي

يجب أن أؤديه، فإنني لا أتمكن فقط من إتمام كل شيء، بل يتبقى لديَّ فائض من الوقت، وفي هذا الوقت الفائض أشعر (وقد حدث ذلك لي مرات ومرات) بحاجة حقيقية وبقلق يدفعاني لعمل شيء ما، وبرعب من ألا أقوم بأي شيء، والذي يبدو أنه لا يطاق، كما لو كنت غير معتاد على تمضية الساعات، وإن صح القول، الشهور بغرفتي وأنا عاقد ذراعيَّ».

~ * ~

جورج كريستوف ليشتنبرج

٢٤ مارس ١٧٨٦

~ * ~

كان ليشتنبرج أحدب ومصابًا بوسواس المرض والاكتئاب، ولم يُنشر كتاب الشذرات الذي يُعرف به الآن وهو «دفاتر المسودات» (The Waste Books) - إلا بعد وفاته. وكان معروفًا أيضًا بطبيعته المرحة وظرافته مع الآخرين، وخلال سنوات حياته حاز سمعة سيئة كبيرة بوصفه عالمًا وعالم رياضيات. وكان السؤالُ حول كيف لشخص ظل، خلال حياته، نموذجًا يحتذى للتطور العلمي أن يخط أيضًا الإدانات اللاذعة الواردة في دفاتر مسوداته، هو أحدَ الألغاز الرئيسية في تاريخ التشاؤم. وتقول إحدى شذرات ليشتنبرج: «يعيش البشر في ثلاثة أماكن - في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل - ويمكن أن يكونوا تُعساء حين يصبح أحد هذه الثلاثة عديم القيمة. وقد أضاف الدين مكانًا رابعًا، ألا وهو الأبدية».

~ * ~

استشهد بشذرات ليشتنبرج كلٌّ من كيركجور وشوبنهور وفرويد وفتجنشتين

وكثيرون غيرهم. وذهب نيتشه ذات مرة إلى القول بأن «دفاتر المسودات» هو أحد أربعة كتب ألمانية تستحق أن يقرأها المرء مرة ثانية.

~ * ~

حين كان ليشتنبرج طفلًا، احدودب ظهره بسبب تشوُّه أصاب عموده الفقري، وسيكون ذلك في النهاية سببًا لمتاعب تنفسية حادة لديه. وحين كان طالبًا، كانت تعتريه نوبات اكتئابية حادة (في المدرسة، يذكر ليشتنبرج أنه كان يكتب باللاتينية مقالات مستفيضة دفاعًا عن الانتحار). وكانت تقابل ذلك فترات من النشاط المحموم، ولا سيما في الفيزياء. لكن فورة أفكار التجارب العلمية كانت تصحبها حالة من التسويف الذي يكاد يكون مرضيًّا. وعلى الرغم من ذلك، فقد كتب مجلدات من المقالات العلمية، وإلى جانب المقالات العلمية «الجادة»، كتب أيضًا مقالات تحمل عناوين من قبيل: «خيالات جيولوجية»، و«رسالة كريمة من الأرض إلى القمر»، و«محاولات في التاريخ الطبيعي للشعراء الرديئين، ولا سيما الألمان»، ورسالة التأملات الذاتية (A Fragment on Tails)[1].

~ * ~

ظل ليشتنبرج طوال حياته ضحية لوسواس المرض، ومر به وقتٌ كان يعتقد أنه يعاني الحمى والربو والاستسقاء واليرقان والشلل الجزئي، وأنه مريض بالقلب ولديه ورم بالكبد وماء زائد في الدماغ، وأن شيخوخة مبكرة قد أصابته - كل ذلك في آنٍ واحد معًا. وكتب في يومياته: «أرى العالم كله كآلةٍ

---

(١) إحدى رسائل ليشتنبرج التي وجهها ضد مبادئ علم الفراسة التي طرحها الشاعر السويسري وعالم الفراسة يوهان كاسبر لافاتير. (المترجم).

غايتُها هي أن تجعلني أشعر بمرضي وبمعاناتي بكل طريق ممكنة. أصبحت مصابًا بوسواس العظمة. والخُوار هو الكلمة المناسبة لمرضي، ولكن هل يمكن التخلص منه؟»، وفي تدوينة أخرى، يصبح أكثر إيجازًا في تشخيص حالته المرضية: «كان يحتفظ باسمين لنعليه الاثنتين».

~ * ~

اشتهر ليشتنبرج، وهو عالم لم نَعُد نذكره بشيء، أول ما اشتهر بسمعته كمحاضر بجامعة جوتنجن. وتولى تحرير ما كان، يومئذ، هو المقرَّر الدراسي الثابت في مادة الفيزياء، وحضر محاضراته أمثال أليساندرو فولتا وكارل فريدريش جاوس وألكسندر فون همبولت وجوته. ولكنه لم يكن صديقًا للمثقفين (كتب ذات مرة: «كل شخصٍ يكون عبقريًّا لمرة واحدة على الأقل في السنة»، و«ما يسمى بالعباقرة ببساطة يجمعون أفكارهم العبقرية معًا»). وأعقب ذلك اختياره لعضوية العديد من جمعيات العلوم الملكية، وكذلك جاءت زيارته إلى لندن حيث التقى بالملك والملكة، ولم تكن لخفة ظله وجاذبيته ومواهبه الاجتماعية أن تمر دون أن تلفت الانتباه. لكن يبدو أن مثل هذه الرفقة لم تجلب عليه سوى الازدراء فيقول: «كم سيعيش كثيرون في سعادة لو أنهم شغلوا أنفسهم قليلًا بشؤون الآخرين كما ينشغلون بشؤونهم الخاصة».

~ * ~

وخلال عمله في مهنة التدريس، كان ليشتنبرج في طليعة هؤلاء الذين أدخلوا الأجهزة العلمية والتجارب في محاضراتهم، وكان هو نفسه يهوى بشدة اقتناء المعدات العلمية. وكان جيرانه يدركون أن البروفيسور موجود بالمنزل

حين يسمعون بشكل متكرر أصوات انفجارات مختلفة تصدر من مختبره (مصحوبة، دون شك، بنوبات إحباط)، وفي ثمانينيات القرن الثامن عشر أثار بعض الهواجس حين نصب في وسط ساحة البلدة أول مانعة صواعق تابعة لجامعة جوتنجن - وكأنها ضراعة إلى السماء.

~ * ~

إن العمل الذي يُعرف به ليشتنبرج - والمسمى «دفاتر المسودات»، هو كتاب من تلك النوعية التي لم يكن تأليفها ممكنًا إلا بعفوية، ودون اكتراث تقريبًا، وعبر نية ضئيلة للنشر، بل وبانشغال قليل بالجدارة الأدبية. وهذا هو الانطباع السائد عنه، على الأقل. وفي الحقيقة، يجب أن يصاغ بعناية وأن يُهذَّب بدقة متناهية حتى يمكن الوصول إلى جوهره التهكمي. ويتضح إدراك ليشتنبرج لشذراته باعتبارها «عملًا» ذاتيًّا في مستهل الكتاب عبر إحدى التدوينات التي يستعير فيها الكلمة الإنجليزية «waste book» (دفتر مسودات) من هؤلاء التجار الذين يسجلون، في نهاية يومهم، كل ما قاموا بشرائه وبيعه. ومن ثَمَّ يقومون بصياغة ذلك تدريجيًّا بشكل أكثر تنظيمًا - في «دفتر يومية»، وفي النهاية في «دفتر أستاذ» رسمي حيثما يتم تسوية جميع الحسابات وتفسير جميع أعمال اليوم. وكما ينوه ليشتنبرج: «ذلك مما يجدر بالعالِم أن يحاكيه».
ويمضي في وصف ذلك على نحو أكثر تفصيلًا:

> «أولًا، كتاب أسجل فيه كل شيء كيفما أراه تمامًا أو كيفما تأخذني أفكاري، وبعدئذ يمكن تحويل ذلك إلى كتاب آخر تُرتَّب فيه المواد وتُصنَّف على نحو أفضل، ثم يمكن لدفتر الأستاذ أن يتضمن سياقًا متصلًا وإيضاحًا للموضوع الذي ينشأ عن ذلك بطريقة منظمة».

ويبدو تعليق ليشتنبرج من فوره مزحة - لكونه يقارن قيمة بضائع تُباع وتشترى مع التأملات الفلسفية التي يفترض أنها لا تُقدَّر بثمن - وفي الوقت نفسه

منهجًا جادًّا لنوعية الشذرات التي يجدها المرء أيضًا لدى لا روشفوكو وشامفور وليوباردي وكراوس وسيوران. ولكنه يحمل أيضًا معنى يتم من خلاله تقويض المنهج - وهو كما يبدو منظم وأنيق، بواسطة التشاؤم الحاد وروح الدعابة السوداء التي تدفعه. وبداية من عام ١٧٦٤، حين شرع ليشتنبرج وكان طالبًا، في كتابة دفاتر مسوداته، وحتى عام ١٧٩٩، عام وفاته، أنتج نحو اثني عشر دفترًا، كان يسمي كل واحد منها بأحد أحرف الهجاء. وتأتي تعليقاته حول مصطلح «دفتر المسودات» من الدفتر «E»، حيث تظهر في منتصفه تقريبًا. ولكن ليشتنبرج في دفاتر لاحقة، لا يذكر أي شيء آخر عن منهج «دفتر المسودات». وإذا كان لنا أن نأخذ ليشتنبرج على محمل الجد (وهو تأكيد إشكالي، في أحسن الأحوال)، فيبدو أنه إما لم يُتَح له قَطُّ الوقت لتحويل «دفاتر مسوداته» إلى «دفتر أستاذ» مبيَّض، أو أن الأمر كله لا يعدو أن يكون «مزحة خادعة» وهي أن «دفتر المسودات» هو «دفتر الأستاذ».

~ * ~

كان ليشتنبرج، كما أسلفنا، محدودب الظهر. وبعد ذلك بزمن، سوف تسمي مجموعة من علماء الفلك فوهة كبيرة على سطح القمر باسمه. وبحسب أحد التقارير، تشتهر فوهة ليشتنبرج بـ«ظواهرها القمرية الهادئة».

~ * ~

وصف ليشتنبرج وجهه ذات مرة بأنه «عدَّاد لقياس القلق».

~ * ~

فيليب ماينلاندر

١ أبريل ١٨٧٦

~ * ~

في مساء الأول من أبريل عام ١٨٧٦، جمع فيليب باتس ذو الأربعة والثلاثين عامًا نُسَخ كتابه المسمى «فلسفة الخلاص»، التي كانت قد وصلت إليه للتو من دار النشر. وكان قد عمل بالقطاعين المالي والمصرفي لقرابة عقد من الزمان، قبل أن يترك وظيفته وقد سئمها. وبسبب شكواه من الإرهاق والتعب تم تسريحه من الخدمة العسكرية. وقد ألَّف كثيرًا من القصائد والأعمال الأدبية بيد أنها لم تجد طريقها للنشر. ومنذ كان في سن المراهقة، انكب فيليب بنهم على قراءة أعمال شوبنهور، وكذلك ليوباردي ودانتي وهرقليطس.

وفي شقته بمدينة أوفنباخ، جمع باتس نُسَخ كتابه ذي التسعمائة صفحة، ولكن بأي قدر من التعمد فهذا مما يستحيل معرفته. يدور الكتاب، الذي نشره باسم مستعار هو «فيليب ماينلاندر»، حول «إرادة موت» مبثوثة تدفع دون مبالاة كل ما هو موجود لأنْ يوجد - لأنْ يوجد كي يَفنى. ورصَّ باتس نُسَخ كتابه على الأرض في كومة واحدة، ثم صعد فوقها وشنق نفسه في عارضة سقف الغرفة.

وعلى الرغم من أن أفكار شوبنهور قد أثرت تأثيرًا كبيرًا في الفلسفة

الألمانية خلال القرن التاسع عشر، فإن معظم فلاسفة الألمان حاولوا إيجاد نوع من التوازن بين شوبنهور وهيجل على سبيل المثال. وهناك استثناءان لذلك. أحدهما هو نيتشه، الذي سعى لقلب نفي شوبنهور إلى إثبات. وكان الاستثناء الثاني هو ماينلاندر، الذي ذهب في الاتجاه الآخر، بقلبه نفي شوبنهور إلى نفي إضافي.

تقوم فلسفة ماينلاندر في جوهرها على فكرة أن كل ما هو موجود، يوجد من أجل أن ينعدم وجوده - لا من أجل تلك الحياة الأخرى النابعة من المخيلة والوهم، ولا من أجل الدخول في دورة أخرى من الميلاد والشقاء ثم الموت، ولكن من أجل فناء خالص - «إماتة الطاقة». إن كل ما هو موجود لا يوجد إلا من أجل إبطال وجوده، مدفوعًا في ذلك بـ«إرادة موت» عمياء. وهذا هو ما يسميه ماينلاندر «الخلاص».

وإرهاصًا بفكرة ستصبح محورية في فكر نيتشه، يؤكد ماينلاندر أن كل ما هو موجود ليس نتاجًا لعمل خالق كريم، بل نتاج لموت الإله: «مات الإله، وكان موتُه حياةً للعالم».

وفوق ذلك، فإن الإله لا يموت عرضًا، بل يقتل نفسه. في هذا «الموات الذاتي للإله»، يقترح ماينلاندر أن العالم والحياة وذواتنا، هي جميعها بقايا عطنة لانتحار الإله.

~ * ~

على الرغم من أن ماينلاندر كان منغمسًا في فلسفتَي سبينوزا وكانط، فإن اكتشافه شوبنهور هو ما كان له أبلغ الأثر عليه. ويحكي ماينلاندر نفسه عن لقاء الصدفة الذي جمعه بفلسفة شوبنهور في متجر للكتب، ويصف كيف أنه في أثناء تصفحه كتاب «العالم إرادةً وتمثلًا» قرأ عن «إنكار الإرادة» وسَحره ما قرأه على الفور. «انطلقت مثل المجنون من متجر الكتب وعدت

إلى المنزل، حيث قرأته من أوله حتى آخره. كان الوقت فجرًا حين انتهيت. وكنت قد عكفت الليلة كلها على قراءته. وحين نهضت، شعرت بأنني وُلدت من جديد».

~ * ~

وعلى الرغم من أن فلسفته كانت تتوخى أن تكون رؤيوية وصارمة في آنٍ واحد، فإن هناك شعورًا ما بأن ماينلاندر يتحاشى دائمًا غواية الدين. ويقول في إحدى الفقرات: «الشخص الذي ضجر بالعالم هو الذي يسأل نفسه: أكون أو لا أكون؟ ويوجِد لهذا السؤال أسبابًا مؤيدة وأخرى معارضة من داخل العالم وحده». ولأن المرء دائمًا ما يتحدث ويفكر من داخل العالم، فإن أي إيماءة إلى «خارجه» هي في أفضل الأحوال غرور، لأن «ما وراء العالم ليس مكانًا للسكينة ولا مكانًا للعذاب، ولكنه عدم وحسب». إن غواية الحالة العدمية تصبح على الفور هي جوهر فلسفة ماينلاندر، وهي لاكينونة مبهمة حيث «لا سكون ولا حركة ولكن انعدام حالة كما النوم، إلا أنه مع الفارق الهائل المتمثل في أن ما هو في انعدام حالة النوم لم يَعُد موجودًا أيضًا حيث تنعدم الإرادة تمامًا».

~ * ~

على الرغم من ادعاءاته الكبرى بشأن أعظم أعماله، فإن كتاب ماينلاندر ليس كتابًا نسقيًّا ولا صارمًا. أو بالأحرى، فإن نَسَقيَّته تصبح هذيانًا وصرامته تصبح انتشاءً؛ فالأقسام التي تحلل فلسفة كانط أو تشرح أفكارًا من العلوم تتوقف فجأة وتتحول إلى شيء من قبيل «آهٍ، هذه لمحة من فراغ مطلق!».

ومع ذلك، فإن ما يفتقر إليه كتاب ماينلاندر في نظامه يعوضه في دوافعه: «أود أن أحطم كل دافع مريب يمكن أن يعوق البشر في بحثهم عن الليلة الساكنة للموت».

~ * ~

ويرى ماينلاندر أن المتشائم فُكاهي أيضًا، لا فكاهة المرح والخفة، ولكن فكاهة الدعابة السوداء. وقد يرى المتشائم أحيانًا «سماء الوضوح الشفاف»، ومع ذلك «تعيده قوة لا تقاوَم إلى حمأة العالم». وحين يُظهر المرء مثابرة، فذلك لأن المتشائم «لا يستحسن سوى صراع واحد، ألا وهو الصراع من أجل الوصول إلى سكينة القبر». ويرى ماينلاندر أن المتشائم «ينتمي إلى كلا العالمَين لأن القوة تخذله في أن ينبذ أيًّا منهما». والنتيجة هي تشاؤم من نوع غريب لم يخطر حتى ببال شوبنهور. وفي إحدى أكثر صياغاته إيجازًا، يقول ماينلاندر: «المتشائم في واقع الأمر هو متفائل أُحسِنَ تعليمه».

~ * ~

وحول قبر فيليب باتس يجد المرء زهورًا وتذكارات وقصائد ودفاتر وصورًا فوتوغرافية ورسومًا، وحتى دُمى له. وقد ارتبطت مجموعة تسمي نفسها «سِنكرز» (Sinkers) بفلسفة ماينلاندر، ومدرسة «سِنكرز»، بحسب تعريف لها هم «فلاسفة يحملون أكفانهم في داخل أنفسهم».

~ * ~

في السنوات التي أعقبت انتحاره، كانت مينَّه شقيقة ماينلاندر بمثابة الوصية والمحررة الأدبية لأعمال شقيقها، وفي عام ١٨٨٦ تمكنت من نشر المجلد الثاني من كتاب «فلسفة الخلاص». بيد أنها ما لبثت أن انتحرت.

~ * ~

ميشيل دو مونتَني

٢٨ فبراير ١٥٧١

~ * ~

كان ميشيل دو مونتني أرستقراطيًّا ورجل دولة وصاحب تجارة ودبلوماسيًّا، وذا نزعة إنسانوية وشخصية مجتمعية وسوداوي المزاج، وكثير الأسفار وشغوفًا بالكتب ومترجمًا وكاتب مقالات، ولذلك كان بكل المقاييس شخصًا خبَر الدنيا وأحاط بها. ولأنه وُلد بالقرب من منطقة «بوردو» لعائلة ثرية تشتغل بالتجارة، فقد تربى وفقًا لأرقى معايير التعليم الإنسانوي. وحين كان شابًّا عمل في برلمان «بوردو»، ثم في محكمة «تشارلز التاسع». وحين يكبر مونتني سوف يصبح أيضًا زارع نبيذ ومحررًا ومترجمًا، ويتقلد منصب «عمدة بوردو». وكرجل دولة، كان غالبًا ما يُجَر إلى النقاشات الوطنية التي تدور حول الصراعات الدينية والسياسية في عصره. وكان كثير الأسفار عبر أوروبا، ويخرج أحيانًا في رحلات حج روحية، ويكون ذلك أحيانًا بغرض الاستشفاء من متاعب صحية، وأحيانًا مدفوعًا بالفضول.

ربما يكون من الغريب إذن، أن يقرر مونتني وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، أن يعتزل العالم. أغلق على نفسه قاعة مكتبته حتى يكتب. كان رفضُه العالم رفضًا قاطعًا، حتى إن مونتني يُعمده بنقش على حائط في مكتبته:

«في سنة ١٥٧١ من ميلاد المسيح، وفي سن الثامنة والثلاثين، وفي اليوم الأخير من شهر فبراير، ذكرى ميلاده، انزوى ميشيل دو مونتني، الذي سئم من خدمة المحكمة وشغل الوظائف العامة كأشد ما يكون السأم وهو ما زال بكامل قواه، انزوى في حضن العذارى الحكيمات، حيث سيقضي في هدوءٍ وصَفو بال، ذلك القليل الذي بقي من حياته التي انقضى أكثر من شطرها الآن. وإذا سمح القدر فسوف يُتم بناء هذا المسكن وهذه الخلوة الجميلة التي ورثها عن أسلافه، وقد كرَّسها لحريته وسكينته وراحته».

~ * ~

ماذا يكتب؟ وكما يمكن لأي قارئ لـ«مقالاته» أن يؤكد، يبدو أن مونتني قد كتب في كل شيء - ما يربو على مائة مقالة تضمها ثلاثة كتب تغطي كل شيء، بداية من فن المحادثة وحتى أكل لحوم البشر، وكتب منها الكثير في السنوات الثماني الأولى التي قضاها في معتكفه الذي اعتزل فيه العالم. ومع ذلك، فإن ما يلفت الانتباه عبر صفحات وصفحات من التعليقات، هو نظرة مونتني السلبية في أغلب الأحوال تجاه الحياة، وعلى وجه الخصوص الحياة الإنسانية. ويكتب رجل الدولة المنغمس للغاية في سياسات عصره قائلًا: «حان الوقت لكي نحرر أنفسنا من المجتمع، ما دمنا لا نستطيع أن نقدم له شيئًا». وها هو الدبلوماسي المفتون بفن المحادثة يكتب الآن: «نحن لسنا سوى طقوس؛ الطقوس تجرفنا بعيدًا فننصرف عن جوهر الأشياء. نتعلق بالفروع ونترك الجذع والجسم». وها هو المسافر الشغوف الذي كان يومًا ما مقبلًا على الحياة بحلوها ومرها يقرر الآن: «الحياة هي مسيرة متعددة الوجوه لا استواء فيها ولا انتظام. ونحن لا نكون أصدقاء لأنفسنا، ولا نبلغ منزلة السادة، ونصبح عبيدًا، إذا ما أطعنا أنفسنا دائمًا وعلِقنا في أهوائنا ولم يَعُد بإمكاننا أن نحيد عنها أو

نبدل معناها». وها هو المفكر ذو النزعة الإنسانوية، الذي كان ذات يوم يكرس نفسه للمعرفة والبحث عن الحقيقة، يقرر الآن قائلًا: «أن تتفلسف يعني أن تتعلم كيف تموت».

~ * ~

ويبدو أن حيازته ضيعة وقلعة سوف تكفي وزيادة للانعزال عن العالم. لكن قصر مونتني «شاتو دي مونتني» كان لا يزال متخمًا بمباهج الدنيا بالنسبة إلى مونتني. والمراد، كما يقول، هو مخزن خلفي، شيء يشبه غرفة داخل غرفة، حيثما يمكن للمرء أن ينسحب بعيدًا عن نظام الحياة اليومية: «علينا أن نحتفظ بدكان خلفي يكون كله لنا، وخاليًا تمامًا، وفيه نؤسس حريتنا الحقيقية ونقيم خلوتنا الرئيسية ونبدأ عزلتنا».

يقرر مونتني من نفسه أن يقضي جل وقته في «البرج»، وهو مسكن صغير ودائري الشكل في الطرف الجنوبي من القلعة. ويضم برجًا رئيسيًّا وبرجًا صغيرًا مجاورًا له هو بمثابة سُلم له. ويصفه مونتني بنفسه كما يلي:

> «وهو يقع في الطابق الثالث من البرج. الأول هو محرابي، والثاني غرفة للنوم والثياب، حيثما أنام غالبًا كي أكون وحدي. وفي الطابق العلوي توجد خزانة ثياب رائعة. في الماضي كان المكان الأقل نفعًا في منزلي. أقضي جل أيام حياتي وجل ساعات النهار في مكتبتي. لا أوجد فيها ليلًا أبدًا... ومكتبتي دائرية، والجزء الوحيد المستوي بها هو ذلك الذي تتطلبه طاولتي ومقعدي، ولكونها تنثني من حولي دائريًّا، فهي تُظهر لي بلمحة خاطفة جميع كتبي التي رصصتها في خمسة صفوف من الأرفف من جميع جوانبها. وهي ذات إطلالات جميلة ومفتوحة على ثلاثة اتجاهات، وتتسع لست عشرة خطوة فيها عبر مساحة قطرية حرة».

ويختتم الفقرة بما يلي: «ذاك عرشي. أحاول أن أجعل سلطاني عليه بلا منازع،

وأن أنأى بهذا الركن عن الناس أجمعين، سواء الزوجة أو الأبناء أو عموم الناس».

~ * ~

ولا يزال المبنى الذي كان بمثابة الصومعة لدى مونتني قائمًا حتى اليوم، فقد تم ترميمه وتحويله إلى مَعلم تاريخي يضم متحفًا ويقدم جولات سياحية وبه متجر للهدايا، ويتيح لزواره فرصة تذوق نبيذ مزارع الكروم التي يضمها قصر «شاتو دي مونتني».

~ * ~

ويبدو أن شغف مونتني بالكتب قد امتد أيضًا إلى الحيز المكاني الذي تشغله مكتبته. لقد نقش مونتني على ست وأربعين من عوارض السقف الثماني والأربعين للمكتبة، ما يقرب من سبعين اقتباسًا باللغة اللاتينية أو اليونانية، يعود معظمها إلى مؤلفين كلاسيكيين أو للكتاب المقدس. ويجد المرء بينها عبارات صارخة مثل هذه التي تُنسب إلى بليني الأكبر: «ليس هنالك سوى شيء واحد يقيني، وهو أنه لا شيء يقيني. وليس هنالك ما هو أكثر بؤسًا واستكبارًا من الإنسان». ويظهر اقتباسٌ آخر من الشاعر الروماني تيتوس لوكريتيوس يقول: «يطيل المرء أمد الحياة ليُفاجأ بأنها لا تمنحه أي مباهج جديدة». وهناك أيضًا اقتباسات من كُتاب التراجيديا اليونانيين مثل هذا الذي يعود إلى المسرحي يوربيدس: «كيف تحسب نفسك رجلًا عظيمًا، إذا كان أول حادث يصيبك يمكن أن يقضي عليك قضاء مبرمًا؟»، وهذا اقتباس من سوفوكليس: «أبهج حياة هي تلك التي لا تفكر فيها بأي شيء، ذلك أن انعدام التفكير هو حقًّا شر لا يضير أحدًا». ثم هناك عبارات كثيرة من الشكوكيين

اليونانيين، وعلى رأسهم سيكستوس إمبيريكوس: «أنا لا أقرر شيئًا»، «أنا لا أفهم شيئًا»، «من الممكن أن يكون غير ممكن». ويظهر الكثير من هذه الاقتباسات في مقالات مونتني، التي يجد المرء فيها بشكل منتظم اقتباسات من فلاسفة من أمثال شيشرون وسينيكا ولوكريتيوس وهوراس وبلوتارخ.

لكن هذا الشكل الغريب من الجرافيتي كانت له أيضًا غاية عملية أكبر. يذكر مونتني كيف أنه كثيرًا ما يذرع مكتبته جيئة وذهابًا، ويرفع عينيه بين فينة وأخرى حيث ينظر إلى العوارض آملًا أن تكون مصدر إلهام. إن ملاذه ليس مكانًا للعمل بقدر ما هو مساحة للتجوال، وفيه تصبح مساحة المكتبة فتورًا مجوفًا داخل الرأس: «حين أكون بالمنزل، ألوذ كثيرًا بمكتبتي... وفيها أتصفح الآن كتابًا ما، ثم آخر، دون ترتيب ودون خطة، عبر فقرات منفصلة. أتأمل حينًا، وحينًا آخر أُدون أو أُملي شيئًا، وأمشي جيئة وذهابًا، وهذه هي خيالاتي التي تراها هنا».

~ * ~

في عام ١٥٧٠ سقط مونتني من فوق صهوة حصان فيما كان في رحلة ركوب مع أصدقائه. وقع أرضًا وأصبح بين الحياة والموت، وكان لا بد من حمله للعودة به إلى المنزل. كانت هذه على حد قوله هي: «الإغماءة الوحيدة التي تعرضت لها حتى يومنا هذا». ويتذكر بوضوح أنه كان حين يعود إليه وعيه ويغيب، يحسب أنه يحتضر:

> «... حالتي، في الحقيقة، كانت طيبة للغاية وهادئة؛ لم أشعر بأن ما جرى فيه مُصابٌ، للآخرين أو لنفسي؛ كان يعتريني وَهن وضعف شديدان، لا يصاحبهما ألم. رأيت منزلي دون أن أعرفه. وحين وضعوني بالفراش، شعرت بحلاوة لا حدود لها في هذه الراحة، لأنني كنت أُجَر بقوة من هؤلاء الرفاق المساكين، الذين احتملوا المشقة وحملوني بين أذرعهم

> عبر طريق طويل وشديد السوء، وقد نال منهم التعب مرتين أو ثلاثًا وهم يتناوبون حملي. قدموا إليَّ علاجات كثيرة، فلم أقبل أيًا منها، وأنا على يقين أنني أُصبت إصابة قاتلة في الرأس. كانت من الممكن، في الحقيقة، أن تكون ميتة هانئة للغاية؛ لأن ضعف إدراكي حال بيني وبين تكوين أي رأي بشأنها، كما حال ضعف جسدي بيني وبين الشعور بها».

«... يا لها من ميتة هانئة للغاية...». ربما لا توجد عبارة أخرى تلخص على نحو أفضل رؤية مونتني للموت. ومع ذلك، فإن الفترة التي تلت حادث ركوب الخيل تمتلئ هي الأخرى بالموت: مات صديقه المقرب، الشاعر لابويتي عام ١٥٦٣، ومات والده في عام ١٥٦٨، ومات شقيقه بعد عامٍ من ذلك، ووُلد له طفل ميت في عام ١٥٧٠، قبيل شروعه في تأليف كتاب «المقالات».

وعلى غرار كُتاب كبار مثل شيشرون وسينيكا، غالبًا ما يجد المرء مونتني يتأمل في اعتباطية الحياة في مواجهة يقينية الموت: «في غمرة المتعة والابتهاج، دعونا نضع نصب أعيننا هذه اللازمة، ذكرى حالتنا؛ ودعونا لا نسمح لأنفسنا أبدًا أن تجرفنا اللذة على نحو لا نتذكر معه أحيانًا أن سعادتنا فريسة للموت عبر طرق عديدة...». ولا يمنحه الدين قليلًا من العزاء، إلا ليؤكد تضارب المشاعر إزاء الحياة والمعاناة التي تلازمها: «ليس لديننا أساس أشد يقينيةً من ازدراء الحياة. وليست الحجج المنطقية وحدها هي ما يدعونا لذلك؛ وإلا فلماذا ينبغي أن نخشى فقدان شيء لا يمكننا أن نأسف عليه حين نفقده؟».

تقود هذه الأفكار مونتني نحو تبَني مفهومٍ ما للموت، حيث تصبح حكمة شيشرون التي تقول: «أن تتفلسف يعني أن تتعلم كيف تموت»، بمثابة المنطلق الذي اعتمده مونتني في مقالته التي تحمل العنوان نفسه. ولا يعود الموت نقيضًا للحياة، بل حاضرًا في كل شيء بالحياة - ويصبح الموت نتيجة للحياة. وهكذا، لا ينبغي الخشية من الموت (أو بالأحرى، لا

يمكن خشيته). ويأخذ ذلك مونتني إلى صيغته الشهيرة: «بما أننا لا ندري يقينًا أين ينتظرنا الموت، فدعونا ننتظره في كل مكان».

وفي أثناء هذا الانتظار، يكتب مونتني، وكما لو كان يمسك بحبة رمل دقيقة، محاولًا تقديم صياغات مختلفة لهذا الموضوع:

> «طوال الوقت الذي تعيشه أنت تسرق من الحياة...
> العيش يُقتطع من حساب الحياة...
> المهمة الدائمة لحياتنا هي أن نبني الموت...
> أنت تمارس الموت فيما تعيش الحياة...».

ويظل السؤال، بشأن ما إذا كانت مثل هذه الحِكم تحقق غاية علاجية لدى مونتني أم لا، مطروحًا للنقاش. وفي مقال آخر لاحق، يكشف عن موقف مختلف قليلًا، موقف لا يمكن إلا أن يُنعت بأنه خُرافي:

> «أحيانًا أستمد من اللامبالاة والتراخي سبيلًا أشُد به أزر نفسي في مواجهة هذه الأفكار... وغالبًا ما يحدث أن أتخيل وأترقب أخطارًا مميتة ببعض المتعة: حيث أرتطم مباشرة، بغباء في الموت، دون أن أنظر إليه ودون أن أعرفه، وكأني أرتطم بهوَّة صامتة ومظلمة تبتلعني في قفزة واحدة، وفي غمضة عين تغمرني في نوم ثقيل لا حس فيه ولا ألم. وفي هذه الميتات السريعة والعنيفة، يمنحني الأثر الذي أتوقعه راحة تفُوق ما يسببه لي حدث الموت من خوف».

~ * ~

أيهما يأتي أولًا، مونتني المكتئب، أم مونتني الشكاك؟

~ * ~

إن كتاب مونتني «المقالات» هو كتاب تسوده العشوائية، ونتاجٌ للإحباط

والتعب والضجر من العالم والكسل والخمول والملل. وفي مقابل الفكرة العصرية جدًّا التي تنظر للكتابة بوصفها علاجًا، يقدم «المقالات» شيئًا مغايرًا وهو الكتابة بوصفها إلهاء. وسوف يصاب قارئ «المقالات» بخيبة أمل إذا راح يبحث فيه عن وصفة سرية لنمط العيش السليم.

ولكن، أيًّا كان الأمر، فقد أصبح «المقالات» جزءًا من قواعد الأدب الغربي. ولأنه كُتِب بوتيرة متقطعة على مدى عشرين سنة، فقد نُشر المجلد الأول في عام ١٥٨٠، ونُشر الثاني في عام ١٥٨٨، فيما نُشر الثالث بعد وفاته في عام ١٥٩٥. وبحسب روايته هو نفسه، يبدو أن مونتني كان ينظر إلى الكل باعتباره عملًا موحدًا، على الرغم من أن الكلمة التي يستخدمها لوصف كتاباته – وهي «essai» – تحيل إلى شيء غير نهائي أو تجربة أو محاولة أو «مسعى»، وهو كلٌّ أصغر من مجموع أجزائه.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه يعبر مرارًا وتكرارًا عن تضارب في نظرته إلى كتاباته التي يدونها، حيث يصفها بأنها: «وهم ووحش»، و«خطة مجنونة ووحشية»، و«هذه العبثيات»، و«هذا المشروع الغبي».

ولا يبدو أنه منبهر بنفسه بأي قدر يجعلها تسحره: «إنني أجيد النسيان بشدة، حتى إنني أنسى كتاباتي ومؤلفاتي بدرجة لا تقل عن نسياني ما كتبه الآخرون. والناس طوال الوقت يأتوني بمقولات لي فلا أعرفها».

~ * ~

يستيقظ مونتني بعد السابعة، ثم يعود للنوم أحيانًا بعد تناول الفطور. يقرأ وهو جالس بالمرحاض، لمُدد غالبًا ما تطول. ويرتدي الأسود والأبيض، ولا يستطيع القراءة أو الكتابة إذا وُجد بالغرفة أحدٌ سواه. يمشي مشيات قصيرة ونشطة. وحين يجلس إلى مائدة العشاء يتشتت انتباهه بسهولة إذا ما رُصت عليها أطباق كثيرة. يأكل بلهفة، وأحيانًا يعض لسانه عن طريق الخطأ.

والمناديل موجودة بكثرة. وشرائح اللحم نادرة، بل ومنتنة الرائحة: محار، صلصات، بطيخ، فجل يُهضم جيدًا في يوم ولا يُهضم جيدًا في يوم آخر، نبيذ أحمر في ليلة ونبيذ أبيض في أخرى. يواجه متاعب هضمية متقطعة، ويلمس تراجعًا في قدرته على الإبصار، ويعاني حصوات كلى مؤلمة. يكره التدخين، ونادرًا ما يشرب الكحول. ينام «بمفرده نومًا ثقيلًا»، ويتدثر بكومة من الأغطية.

على الرغم من أنه هاجم عبودية العادة، فقد أشار مونتني أيضًا إلى ميله لاتباع نظام حياتي يومي. ويمكن لأدنى انقطاع في هذا النظام أن يسبب له سلسلة من الآثار الضارة: «حين تبتسم لي صحتي ويشرق يوم جميل، أُصبح على ما يرام. وحين توجد مثقال حبة ذُرة تزعج إصبع قدمي، أغدو فظًّا غليظ القلب وشخصًا بغيضًا».

~ * ~

في عام ١٥٧٦ تقريبًا، وبينما كان يكتب مقالاته، طلب مونتني صُنْع ميداليات للذكرى. وتحتوي كل واحدة على شعار النبالة الخاص بالعائلة واسم العائلة، وعليها باللغة اليونانية شعار الفلسفة الشكوكية البيرونية: «أنا أعلق الحكم». ولعله كان يحملها معه أثناء أسفاره، مثل عملات معدنية كثيرة كان يحملها في كيس النقود.

~ * ~

فريدريش نيتشه

٣ يناير ١٨٨٩

~ * ~

في عام ١٨٨٥ تقريبًا، يكتب نيتشه في دفتره: «إن التعارض ينبثق بين العالم الذي نبجله والعالم الذي نعيش فيه – وهو ما نحن عليه. وعلينا إذن أن نلغي إما تبجيلنا وإما أنفسنا».

~ * ~

يبرع نيتشه فيما يدرسه، ولكنه دائمًا ما يتميز عن الجميع أو دائمًا ما يميز نفسه. وبحسب حكاية روتها شقيقته، اعتاد نيتشه الصغير أن يتمشى مطلِقًا لنفسه العنان وهو يردد مزامير وآيات من الكتاب المقدس، وأن يلقي على زملائه الطلاب المأخوذين به ما يشبه عظاتٍ مرتجَلة. ولذلك يمنحه زملاؤه في المدرسة لقب «القس الصغير».

~ * ~

كان والد نيتشه، كارل لودفيج نيتشه، قسًّا في الكنيسة الكائنة بقرية روكين

الصغيرة التي نشأ بها «فريتز» الصغير. ويصفه نيتشه بأنه «الصورة المثلى لقس قروي» كان «يعيش حياة هادئة وبسيطة ولكنها سعيدة». تُوفي والد نيتشه في عام ١٨٤٩، حين كان فريدريش في الخامسة من عمره. كان التشخيص المرضي «تَليُّن في الدماغ». ولاحقًا، وخلال أحد اعتلالاته الصحية الكثيرة، أفضى نيتشه البالغ من العمر وقتها ٣٢ عامًا إلى أحد أصدقائه قائلًا: «مات أبي بالتهاب في الدماغ وهو في السادسة والثلاثين. ولعل ذلك يصيبني أسرع مما أصابه».

~ * ~

عانى نيتشه منذ سن مبكرة اعتلالات صحية مستمرة، كانت تفضي، على حد وصفه، إلى «تنوع مضحك في أوجاعي». وفي الثالث من يناير عام ١٨٨٩ تبلغ تلك الاعتلالات ذروتها، حين ينهار نيتشه في أحد شوارع مدينة تورينو بعدما يشهد حصانًا يلهبه صاحبه بالسياط. ووفقًا لبعض الروايات، اندفع نيتشه باكيًا منتحبًا صوب الحصان وطوَّق رقبته بذراعيه ثم انهار. يُحمَل نيتشه إلى مسكنه، حيث يخط خلال الأيام القليلة التالية عدة رسائل قصار. يشعر صديقاه فرانز أوفربك وجاكوب بوركهارت بالقلق إزاء ما يقرآن. في النهاية، يُنقل نيتشه إلى مصحة علاجية في بازل، حيث تُجرَّب معه علاجات كثيرة، أحدها يقدمه معالج بالفن «ويفشل». يصيب الخرس نيتشه في نهاية الأمر، فلا يعود يتكلم أو يكتب. وعندئذ يُرسَل إلى والدته المسنة كي يكون في رعايتها، قبل إرساله إلى شقيقته إليزابث كي يصبح في رعايتها. وفي تورينو، وقبيل انهياره، يكتب نيتشه عن شعوره بروح معنوية عالية: «معجزة المعجزات!... في هذا اليوم الرائع، أضاء شعاعٌ من نور الشمس حياتي».

ومع ذلك، فإن هذه الحادثة التي تبدو الآن أسطورية الطابع قد سبقتها أمراض ظلت ترافقه طوال عمره. ففي سن التاسعة، يصاب نيتشه بالحمى

القرمزية. وفي المدرسة الداخلية، يعاني نوبات صداع متكررة، ويُضطر في أحيان كثيرة للمكوث بعض الوقت في المستوصف (ويشير سجل الحالات المرضية في المدرسة خلال الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٤، إلى أكثر من عشرين مرة أُدخل فيها الطالب المستوصف). وفي السنوات التالية، لن تشهد سلسلة أمراضه إلا زيادة مثل الصداع النصفي والروماتيزم واحتقان الدماغ والنزلات الشعبية والأمراض التنفسية وضعف المناعة. وكان صداعه النصفي يستمر أحيانًا لأيام، مسببًا له الغثيان والقيء. وامتلأت سنواته الجامعية هي الأخرى بالأمراض التي فاقمها دون شك شربُه الجعة وتدخينه التبغ وارتياده بيوت الدعارة. يجرب العلاج بالراحة والتريض، ويستعين بالعديد من المقويات والأدوية - حتى بلغ به الأمر أن وصف لنفسه «هيدرات الكلورال»[١]، ووقَّع الروشتة الطبية باسم «دكتور نيتشه». وخلال خدمته العسكرية تعرَّض لإصابة جراء حادث سقوط. ودفعه الألم الناجم عن الإصابة إلى تعاطي جرعات من المورفين، كانت تسبب له هلوسات مرضية خطيرة: «ما أخشاه ليس الشبح المخيف القابع خلف مقعدي، ولكن صوته: وليست الكلمات بقدر ما هي النبرة المرعبة غير المفهومة وغير الإنسانية التي لذلك الشبح. نعم، ليته كان يتحدث كما يتحدث الناس!».

~ * ~

في عام ١٨٧٠ يصبح نيتشه مساعد تمريض في الحرب الفرنسية البروسية، حيث كان يحمل جثث القتلى أو ينقل الجرحى. وخلال هذه الفترة يصاب بالدفتيريا والدوسنتاريا، والأخيرة سوف تسبب له متاعب هضمية جمَّة ظل نيتشه يكابدها طوال حياته. وتتلو ذلك نوبات من الأرق. تأتلف على نيتشه

(١) عقار مهدئ يساعد على النوم. (المترجم).

الأمراض والضغوط التي ولَّدتها تجربة الحرب وأعباء أستاذيته بالجامعة، وفي النهاية تنال منه منالًا عظيمًا. وفي عام ١٨٧١ يكتب: «ماذا يعني أن تكون مفكرًا في مواجهة مثل هذه الزلازل الثقافية!»، وبعد بضع سنوات، وفيما كان يعكف على كتابه الذي لن يتمه أبدًا وهو «الفلسفة في العصر التراجيدي عند الإغريق»، يصاب بمرض في عينيه يُضطر معه أن يملي قدرًا كبيرًا من الكتاب على أحد أصدقائه. وبعد تقاعده المبكر من وظيفته في جامعة بازل، يدخل نيتشه مرحلة من التجوال، بحثًا عن ظروف مناخية أنسب للصحة كما في جنوة ونيس ورابالو وسيلس ماريا وتوت إنبرج وتونس وتورينو. وفي رسالة إلى صديق عام ١٨٨٥، يقول: «أسلك كما تسلك الحيوانات المريضة وأختبئ داخل كهفي...».

~ * ~

كان لنصوص الكتاب المقدس الأثر الأول والأكبر على نيتشه خلال سنوات طفولته. وعلى نحو ما، لم يغادره قَطُّ ولعه بحفظ الآيات والمزامير، وهو ما يتبين من القَصص الديني والأشعار والأغاني الواردة في كتابيه «هكذا تكلم زرادشت» و«أناشيد ديونيزيوس» ضمن أعماله الأخيرة. وفي مدرسة بفورتا الداخلية (وهي دير سابق للرهبان البرنارديين)، يكتشف نيتشه أعمال جان باول، الذي كان لمزجه بين العاطفة الدينية والدعابة الواضحة تأثير دائم عليه. يكتشف نيتشه أيضًا أشعار فريدريش هولدرلين، وكان حتى ذلك الحين غير معروف نسبيًّا (وكان، كما ألمح إلى ذلك أحد أساتذته، «حالمًا للغاية»). ولفترة من الوقت، أصبح نيتشه صديقًا للشاعر الألماني المتصعلك ومدمن الشراب إرنست أورتليب، الذي سوف يُعثر عليه ذات يوم ميتًا في حفرة خلال سنوات نيتشه في مدرسة بفورتا. وخلال دراسته الجامعية، يتأجج اهتمام نيتشه بالدراما والموسيقى الإغريقية.

وفي نهاية ذلك سوف يُعيَّن أستاذًا لفقه اللغة الكلاسيكي بجامعة بازل في عام ١٨٦٩ (وهو لا يزال في العشرينيات من عمره)، حتى قبل انتهائه من أطروحته.

لكن الكشف الأكبر الذي حققه نيتشه خلال سنواته الدراسية هو اكتشافه شوبنهور. وفي إحدى رسائله يصف نيتشه حالته النفسية البائسة خلال هذه الفترة قائلًا: «كنت أعيش حينئذٍ حالة من التردد العاجز، وحيدًا إلا من تجارب وخيبات مؤلمة، وبلا مبادئ أساسية وبلا أمل وبلا ذكرى واحدة مبهجة».

حدثت الواقعة المصيرية في عام ١٨٦٥ في متجر للكتب المستعملة بمدينة ليبتسيج. وهناك يلتقط نيتشه وهو لا يبالي نسخة من كتاب شوبنهور «العالم إرادةً وتمثلًا»: «لا أدري بمَ همس إليَّ الشيطان: خُذ هذا الكتاب معك إلى المنزل». ويلمح نيتشه بجدية إلى أن ذلك كان «خلافًا لترددي المعتاد في شراء الكتب». لكن شراء هذا الكتاب كان له أبلغ الأثر. «حالما وصلت إلى المنزل، ألقيت بنفسي على الأريكة وبحوزتي الكنز الجديد الذي ظفرت به وبدأت أترك ذلك العبقري المفعم بالحيوية والكآبة يفعل فعله بي...». أحدث شوبنهور أثرًا بالغًا لدى نيتشه، حتى إنه شعر في أول الأمر أنه قد اكتشف ذاته - أو أعاد اكتشافها: «رأيت هنا مرآةً أبصرت فيها العالم والحياة وطبيعتي وسط جلال مهيب...».

~ * ~

في أحد كتبه، يقدم نيتشه للقارئ رؤية نادرة عن تربيته الفلسفية. يخبرنا بأنه قام وهو طالب، على غرار أوديسيوس[1]، برحلة إلى العالم السفلي (لعلها إلى مكتبة) كي يعقد لقاء مع الموتى. «كان هناك مجموعة من أربع ثنائيات

(١) بطل ملحمة الأوديسا الإغريقية. (المترجم).

لم ينكروا أنفسهم معي وهم إبيقور المُضحي ومونتني، وجوته وسبينوزا، وأفلاطون وروسو، وبسكال وشوبنهور».

واستنادًا إلى كتابات نيتشه اللاحقة، فإن ما قالوه له لا يمكن أن يوصف بأنه تفاؤل. ومع ذلك، كانت أصواتهم الميتة أقوى تأثيرًا لدى نيتشه من ثرثرة معاصريه، من هؤلاء الأساتذة متعهدي فلاسفة موتى. يبدو الأمر كما لو أن كل عبارة كتبها نيتشه تهدف إلى اجتناب الفلسفة، ولا سيما جثة الفلسفة.

~ * ~

لقد حظيت العوامل المؤثرة في نيتشه، سواء كانت رئيسية أو غير ذلك، بتوثيق جيد. وبعد عام على خوضه «تجربة شوبنهور» وهي تجربة شبه تصوفية، كان نيتشه يعكف على قراءة مؤلفات إيمرسون، وكذلك كتاب كان قد نُشر للتو للفيلسوف الألماني كانطي الهوى فريدريش ألبرت لانجه، والذي يحمل عنوان «تاريخ المادية ونقد دلالتها في العصر الحاضر» (نُشر عام ١٨٦٥). وبينما طرحت مؤلفات الأول على نيتشه أفكارًا حول الطبيعة وحياة التنسك، فقد اطلع من خلال عمل الثاني على الصرامة التي تُعرف بها فلسفة العلم. وسوف يُتبع ذلك بقراءات لكل من روسو وداروين ومونتني وبسكال. وعززت قراءة نيتشه لكتاب «الفكر والواقع: محاولة لتجديد الفلسفة النقدية» (نُشر عام ١٨٧٣) للفيلسوف الروسي أفريكان سبير من انبهاره بصرامة الفلسفة الكانطية وبساطتها. ولاحقًا، سيأتي لقاؤه مع أعمال دوستويفسكي وكيركجور وسترندبيرج. وقد وردت هذه المراجع وغيرها متناثرة في طيَّات كتابات نيتشه نفسه وشهادات أصدقائه وزملائه. ولكن بعد شوبنهور، كان التأثير الكبير الآخر لدى نيتشه هو لقاءه ريتشارد فاجنر في خريف عام ١٨٦٨. وتوجد شواهد كثيرة تؤكد علاقتهما سواء في أعمال نيتشه نفسه مثل (قضية فاجنر ونيتشه ضد فاجنر)، أو في السير

الذاتية والدراسات البحثية. وبقدر ما كان فاجنر - ومريدوه - مهيمنًا، فإن تأثيره كمؤلف موسيقى يدل على الأهمية الكبرى التي كان نيتشه يوليها للموسيقى في حياته، منذ كان طالبًا وعازفًا طموحًا على البيانو وحتى آخر كتاباته الشعرية. وقد سجَّل تقديره لكل من بيتهوفن وشوبرت وشومان وأعمال الكورال التي قدمها باخ وأغاني برامز - وإن كان يصعب تحديد ما إذا كان هذا التقدير صادرًا عن نيتشه المولَع بالموسيقى أم نيتشه الفيلسوف.

ولكن المهم في علاقته مع فاجنر - كما مع شوبنهور - هو أن نيتشه في النهايةِ قد سلك طريقه الخاص - وكأنما يشير إلى أن تأثيرًا ما قد اكتمل، لا إلى أن انفصالًا قد وقع. وفي حالة فاجنر على وجه الخصوص، كانت القطيعة نهائية ومريرة. وتداخلت في ذلك مشاعر شخصية وساد القلق وانعدمت الثقة، وهي أمور لم تحجبها سوى المكانة البارزة التي حظي بها كلاهما. وفي حالة شوبنهور كانت «القطيعة» أشد تعقيدًا. وهناك شعور بأن نيتشه لم يكفَّ قَطُّ عن مناوأة شوبنهور في تفكيره، ما لم يكن بجانبه.

~ * ~

في ربيع عام ١٨٨٨ تلقى نيتشه - وكان وقتئذٍ فيلسوفًا غزير الإنتاج بيد أنه لم يُعرف بعد - نبأ سارًّا لم يكن في حسبانه. في جامعة كوبنهاجن، ألقى باحث يدعى جورج براندس - وكانت قد دارت بينه وبين نيتشه مراسلات - سلسلة محاضرات حول فلسفة نيتشه. اجتذبت المحاضرات المئات، وشكلت أول استعراض حقيقي لفلسفة نيتشه وسط جمهور كبير. قدَّم براندس أيضًا فلسفة نيتشه إلى أوجست سترندبرج، المسرحي المعروف وقتها على نطاق واسع بتصويره الصارخ والمتشائم للاغتراب الحديث. تأثر سترندبرج بشدة بقراءة مؤلفات نيتشه، وأعقبت ذلك مراسلات استمرت لمدة قصيرة بين الاثنين. في البداية، يسود مراسلاتهما الحماس والاحترام المتبادل. ولكن

بحلول ديسمبر من عام ١٨٨٨ - وقبل أقل من شهر من انهيار نيتشه في تورينو، تتخذ الرسائل نبرة غريبة. وفي إحدى الرسائل التي تعود للسابع من ديسمبر، يكتب نيتشه قائلًا:

> «حين وصلني خطابك بالأمس - وهي أول مرة في حياتي يصلني خطاب - كنت قد انتهيت للتو من المراجعة الأخيرة لكتاب «هذا هو الإنسان». وبما أن حياتي لم يَعُد بها أي عنصر من عناصر التغيير، فإنني أستنتج أن ذلك لم يحدث مصادفة أيضًا. كيف لك أن تكتب خطابات تصل في مثل هذه اللحظات؟».

وقد قبِل سترندبرج، الذي يروي سيرته وحالته التي شارفت على الانهيار العصبي في أعمال نثرية له مثل «إنفرنو» الصادرة في ١٨٩٨، وعمله المنشور بعد وفاته «من يوميات غامضة» (١٨٩٦-١٩٠٨)، قبل المراسلات بما كانت عليه. يرسل نيتشه برسالة قصيرة: «سيدي الفاضل: سوف تتلقى عما قريب إجابة عن أقصوصتك - تبدو وكأنها طلقة من فوهة بندقية. لقد أمرت بدعوة الأمراء إلى روما للاجتماع - أعني كي يتم إطلاق النار على الإمبراطور الشاب». وكانت الرسالة مُوقعة باسم «القيصر نيتشه». يجيبه سترندبرج قائلًا: «الدكتور الحبيب!»، متبوعًا ببيت شعري للشاعر الغنائي أناكريون باليونانية: «أريد أن أكون مجنونًا!»، وأتبع ذلك باقتباس آخر باللاتينية من هوراس: «الأفضل لك كي تعيش، يا ليسينوس، ألا توغل دائمًا في البحر، ولا تقترب بشدة من الشاطئ المحفوف بالمخاطر اتقاءً للعواصف». ويضيف سترندبرج بيته الخاص الذي يمكن ترجمته إلى «أحيانًا قد يفيد أن تكون مجنونًا!»، ويرد نيتشه برسالة قصيرة مهرها بتوقيع «المصلوب».

~ * ~

نعرف عائلة نيتشه وأصدقاءه ومعارفه عبر كُتاب السيرة الذاتية. ونعرف أن

التبجيل الذي يحسه نيتشه نحو والده تقابله بغضاء يحملها لوالدته وشقيقته. ويمكن القول، من باب الإنصاف، إن إليزابث، شقيقة نيتشه، على وجه الخصوص، فاقت أي محرر لاحق في إفسادها مؤلفات نيتشه. وقد تجلت نزعتها المحافظة في زواجها من القومي الألماني والمُعادي للسامية برنارد فورستر (حاول الزوجان في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر - إنشاء مستعمرة ألمانية في باراجواي، وفشلا في ذلك). ولم تستحوذ إليزابث على دفاتر نيتشه ومخطوطاته بعد انهياره العصبي فحسب، بل أصبحت أيضًا بمثابة الوصية على أرشيفه. وتعتبر صورة نيتشه وهو في طور النقاهة ولائذٌ بالصمت في رعاية شقيقته التي تُلبسه رداءً كهنوتيًّا أبيض كي يتمكن الأتباع من الحج إلى «الفيلسوف المجنون» - صورة عبثية وتنم عن غاية شريرة.

كانت علاقات نيتشه بأصدقائه أفضل حالًا إلى حد ما، على الرغم من أن علاقاته الشخصية تبدو دائمًا متقطعة. وهناك، مثلًا، كارل فون جيرسدورف وإرفين روده، صديقاه خلال دراسته في بون، وكان نيتشه مغرمًا بعزف الموسيقى رفقتهما. وفي المدرسة، حاول نيتشه الانضمام إلى جماعات متنوعة، وإن كان سرعان ما ابتعد عن هؤلاء الذين كان ينعتهم متهكمًا بجماعات «مادية الجعة»[١]. وهذه الجماعات بدورها سوف تصف نيتشه بأنه «مجنون» لأنه كان يقضي كل وقت فراغه في الداخل، يقرأ ويعزف الموسيقى. وانضم لاحقًا إلى «النادي اللغوي»، الذي كان على الأرجح أكثر تناغمًا مع اهتماماته ومزاجه.

وخلال فترة إقامته في بازل، وبعد ذلك في ليبتسيج، لا يصبح نيتشه

---

(١) يستخدم نيتشه وصف «مادية الجعة» متهكمًا للإشارة إلى شغف الشباب الألماني في تلك الآونة بالفلسفة المادية، حتى إنهم كانوا يناقشونها في أثناء احتسائهم الجعة في الحانات. (المترجم).

صديقًا لكل من فاجنر وزوجته كوزيما فحسب، بل يتعرف على طائفة من الشخصيات الأخرى البارزة مثل اللاهوتي البروتستانتي فرانز أوفربك (الذي سيؤدي دورًا مهمًّا خلال طور النقاهة الذي مر به نيتشه)، والفيلسوف بول ري والمؤرخ جاكوب بوركهارت والموسيقي هاينريش كوزليتس (وعُرف باسم بيتر جاست، وهو اسم اقترحه نيتشه بناءً على نكتة موسيقية تعني «ضيف الصخرة»)، الذي سيقدم عونًا كبيرًا إلى نيتشه حين يشتد به المرض ويعجز عن الكتابة. ثم هناك لو أندرياس سالومي، وهي محللة نفسية روسية المولد - وكانت شخصية متوقدة الحماس وذكية ومستقلة، وهي قطعًا أهم علاقة حب في حياة نيتشه، على الرغم من أنها لم تبادله الحب - ولو على طريقة نيتشه على الأقل. وأما عن كُتاب السيرة الذاتية، فإن هذه الشخصيات وغيرها تتجمع حول نيتشه مثل كواكب كثيرة - تبدو قريبة ولكنها بعيدة. وفي إحدى رسائله إلى سالومي، يكتب نيتشه، بنبرة شبه اعترافية: «لا أريد أن أكون وحيدًا بعد الآن. أريد أن أتعلم كيف أكون إنسانًا مرة أخرى. للأسف، في هذا الجانب ما زال يتعين عليَّ أن أتعلم كل شيء تقريبًا». وفي رسالة لاحقة، يصف نيتشه سالومي، وهو تحت تأثير ألمِ رفضها له، بأنها «قردة عجفاء وقذرة وكريهة الرائحة وذات ثديين زائفين».



في عام ١٨٧٨، قبل نشره كتاب «إنساني، مفرط في إنسانيته»، فكر نيتشه في اتخاذ اسم مستعار حتى يتفادى غضبة جماعة فاجنر التي كان لا يزال مرتبطًا بها. بل وكتب سيرة ذاتية زائفة لاسمه المستعار، وهو برنارد كرون:

> «السيد برنارد كرون، كما هو معروف عنه حتى الآن، ألماني من مقاطعات البلطيق الروسية، وكان في أسفار مستمرة خلال السنوات الأخيرة. وفي إيطاليا كرس جهده للدراسات اللغوية والآثارية وغيرها، وتَعرَّف على

الدكتور بول ري. ومن خلال وكالة الأخير، اتصل بالسيد شمايتسنر. ونظرًا إلى أن عنوانه سيكون عرضة لتغييرات مستمرة خلال السنوات القليلة المقبلة، فإن الرسائل يجب توجيهها إلى ناشر السيد كرون. ولم يسبق للسيد شمايتسنر رؤيته شخصيًا».

هل نسي نيتشه كم هي الأسماء المستعارة كاشفة عن الذات؟

~ * ~

كما هو حال مفكرين تشاؤميين كُثر، فإن مفتاح فهم سِيرهم الذاتية يكمن في قائمة المصادر. وعلى الرغم من أن حياة نيتشه الحافلة بالدراما قد حظيت باهتمام كبير، فقد أمضى الشطر الأعظم من حياته باعتباره فيلسوفًا وكاتبًا جوالًا - وفي الواقع، كان نيتشه يرى أن كونه كاتبًا يضاهي في أهميته كونه فيلسوفًا. وكتب إحدى أقدم مقالاته «الفلسفية» وهو لم يزل في الثانية عشرة من عمره، وكانت بعنوان «في أصل الشر».

وحين كان نيتشه أستاذًا شابًّا في بازل، كانت عناوين محاضراته تعكس اهتماماته حينذاك: «الموسيقى اليونانية والدراما»، و«مسابقة هوميروس»، و«في شخصية هوميروس» (محاضرته الأولى في عام ١٨٦٩). وتبعتها محاضرات أخرى تناولت مسرحية «حاملات القرابين» لدى إسخيلوس، و«أوديب ملكًا» لدى سفوكليس وشعراء اليونان الغنائيين. وبحلول عام ١٨٧٠، كان نيتشه يجرب بالفعل مزيجًا غريبًا من الكلاسيكية والحداثة، فتأتي مقالاته التجريبية بعناوين من قبيل «رؤية ديونيزية للعالم»، و«تأملات مانفريد»، بالإضافة إلى أعمال الشعر وحتى كتابات سيرية كثيرة.

تشتهر كتب نيتشه بافتقارها إلى النسق، ويتعذر تصنيفها ضمن موقف جدلي أو فلسفي واحد. ومع ذلك، يمكن للمرء أن يتلمس فيها أنماطًا عامة. هناك، على سبيل المثال، الكتابات التي يغلب عليها الطابع

«الأكاديمي» وهي تميل إلى شكل المقالة، ومنها «ميلاد التراجيديا» (١٨٧٢)، و«تأملات في غير أوانها» (١٨٧٦)، ونصوص مثل «عن الحقيقة والأكاذيب بحس لاأخلاقي» (١٨٧٣ تقريبًا). وفيها يختار نيتشه موضوعًا واحدًا - وليكن التراجيديا اليونانية أو أحد أعمال شوبنهور - ثم يشرع في الاستفاضة فيه والتوسع به وتحريفه وتفكيكه حتى يبدو شيئًا يصعب التعرف عليه أو يكاد (وهي طريقة تَعلمها نيتشه من مونتني، دون شك). لكن وصف هذه الأعمال بأنها «أكاديمية» ينطوي على شيء من التضليل، وذلك أن كتبًا مثل «ميلاد التراجيديا» جُوبهت برفض شديد من قِبل زملاء نيتشه من الأساتذة. وأما مقال نيتشه الشهير «تأملات في غير أوانها» والذي جاء تحت عنوان «شوبنهور مربيًا»، فليس محاولة لوداع الفلسفة وحسب، بل يمزج ما بين الشخصي والفلسفي بطريقة ما زالت غير مقبولة لدى الأوساط الفلسفية حتى اليوم.

تتغير الأمور جذريًّا في أعمال نيتشه التي تظهر في فترة منتصف العمر (التي وصفها بعض الباحثين بأنها مرحلته «النقدية»)، ويطرأ تغييران واضحان في كتب مثل «العلم المرح» (١٨٨٢)، و«ما وراء الخير والشر» (١٨٨٦)، و«أصل الأخلاق» (١٨٨٧). الأول هو أن نيتشه يتخلى إلى حد بعيد عن شكل المقالة متبنيًا طريقة الكتابة الشذرية، وهي طريقة لا تسمح فحسب بتكثيف شديد للأفكار، ولكنها توحي أيضًا بكتاب حمَّال أوجه ومقسَّم إلى شظايا ومتنوع المحتوى. ويقدر باحثون في أعمال نيتشه أنه كتب خلال الفترة من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٨ زهاء خمسة آلاف شذرة.

لكن ما يتضح أيضًا في كتب منتصف العمر هو أن نيتشه يصبح فيها قناصًا فلسفيًّا، يصوب نحو موضوعَي الأخلاق والدين. وهناك سمة واضحة تجمع بين هذه الأعمال، وهي أنها تعتمد أسلوبًا أكثر موسيقية، وتعود إلى الموضوع الواحد المرة تلو المرة وكأنه فكرة مهيمنة، وفي كل مرة تنطلق من وجهة نظر مغايرة، وفي كل مرة تعود بموضوعات وتنويعات.

والكتاب الذي يضع نيتشه على هذا المسار هو كتاب «إنساني، مفرط في إنسانيته»، وقد صدرت طبعته الأولى في عام ١٨٧٨ . وهو كتاب يؤلفه نيتشه خلال منعطف مهم في حياته، حيث يكون في سبيله إلى مغادرة الوسط الأكاديمي للأبد، ولكنه أيضًا على أعتاب مرحلة ممتدة يواجه خلالها أطوارًا من المرض والنقاهة، وينتقل من مدينة إلى مدينة ومن غرفة إلى أخرى. وفي القطار يقرأ نيتشه مقولات لا روشفوكو وهو يغادر بازل متوجهًا نحو جنوب إيطاليا، حيثما يشرع في تأليف كتابه «إنساني، مفرط في إنسانيته». وعلى الرغم من التأثير الجلي للأخلاقيين الفرنسيين، فإن التحول الأسلوبي لدى نيتشه يوحي بشيء إضافي. فالمقال والأمثال تحمل طابعًا أدبيًّا فيما تحمل المسلَّمة والمبرهنة الرياضية طابعًا علميًّا أو رياضيًّا. أما الشذرة فتقف في منطقة رمادية، فلا هي غنائية بما يكفي لأن تغدو أدبًا، ولا هي منهجية بما يكفي لأن تغدو علمًا. وبداية من «إنساني، مفرط في إنسانيته»، يشير نيتشه، وتحديدًا لذلك السبب، إلى أن الشذرة هي الأسلوب الأوحد اللائق بالفلسفة - على الأقل لنوعية الفلسفة التي راح نيتشه يصوغها في ذلك الوقت.

ولكن هنا مرة أخرى، يجب علينا أن نستدرك، لأن وصف أعمال منتصف العمر لدى نيتشه بأنها «نقدية» فقط هو وصف يتجاهل الاستثناءات المضيئة التي يتصدرها كتابه «هكذا تكلم زرادشت» (١٨٨٣-١٨٨٥). ويمارس «هكذا تكلم زرادشت»، الذي ربما يكون الأوسع قراءة بين أعمال نيتشه، بجرأة نقد الدين، متخذًا في ذلك شكلًا دينيًّا. وفيه يستعين نيتشه بمجموعة من الأدوات الأسلوبية، التي يستقيها كعادته من ميراث النبوءة والعظة الدينية، وحتى بمسحة من الشعر الزهدي (وإن كان ذلك غالبًا ما يُقدَّم في شكل أناشيد شراب...). مات الإله، أجل، ولكن يظل «هكذا تكلم زرادشت» كتابًا دينيًّا بشدة - أو بالأحرى كتابًا لادينيًّا بشدة. ويبدو الأمر كما لو أن «هكذا تكلم زرادشت» لا يطرح بجرأة دينًا من دون إله فحسب،

ولكنه يطرح أيضًا دينًا من دون دين. وتسود حماسة طاغية، بل ومقلقة، تجاه «هكذا تكلم زرادشت».

~ * ~

ونحن نظلم نيتشه أيما ظلم حين نُحمله مسؤولية موت الإله. لقد تَصادف وحسب أنه كان موجودًا بمسرح الجريمة وعثر على الجثة. وفي واقع الأمر، لم تكن هنالك حتى جريمة قتل - بل كان انتحارًا. ولكن كيف ينتحر الإله؟

~ * ~

اكتشف نيتشه كتابات دوستويفسكي في فبراير من عام ١٨٨٧ خلال وجوده في فرنسا. ففي متجر للكتب، عثر على ترجمة فرنسية لرواية «مذكرات من العالم السفلي». ويحكي نيتشه قصة هذا الاكتشاف في رسالة بعث بها إلى صديقه بيتر جاست: «لقد ظهر لي دوستويفسكي تمامًا كما ظهر ستيندال من قبل، بمحض الصدفة: كتابٌ أتصفحه سريعًا دون اهتمام في متجر، لكاتب لم أسمع به حتى من قبل - وفجأة أُدرك أني قد التقيت شقيقًا».

يصبح نيتشه مفتونًا بحياة دوستويفسكي، وبفترة سجنه وفقره، وبقدرته على وصف أغوار النفس، ولا سيما تصويره الدائم للمعاناة الإنسانية. ويصف نيتشه رواية «مذكرات من العالم السفلي» بأنها تمثل «سخرية مرعبة ومحمومة من حكمة دلفي «اعرف نفسك»، ولكنها ارتُجلت بجرأة عفوية وابتهاج استعان فيهما بقواه الفائقة حتى جعلني أثمل باللذة». وبعد مُضي عام، يظل نيتشه يترنح من أثر هذا الاكتشاف، فيكتب إلى صديق: «إنني أعتبر أي كتاب روسي، ولا سيما إذا كان كتابًا لدوستويفسكي (مترجَمًا إلى الفرنسية لا إلى الألمانية بحق السماء!!) من بين أعظم عزاءاتي».

ولكن شأن كثير من لقاءات الصدفة التي جمعت نيتشه بأرواح ائتلف معها مثل بسكال وكيركجور وسترندبرج، وبالطبع شوبنهور - سرعان ما يخبو حماسه وتحل محله مشاعر متضاربة. ففي نوفمبر من عام ١٨٨٨، كان نيتشه في تورينو، قبل شهر من انهياره العصبي. وبعد أن كان قد انتهى لتوه من كتاب «هذا هو الإنسان»، يكتب نيتشه ردًّا على رسالة لزميله جورج براندس، وهو باحث دنمركي. كان براندس قد وبَّخ نيتشه على افتتانه بدوستويفسكي، منوهًا بأنه «شاعر عظيم، لكنه شخص بغيض ومسيحي حتى النخاع...». أجابه نيتشه: «إنني أصدق على كل كلمة تقولها بحق دوستويفسكي. ومع ذلك فقد منحني أثمن ما أملك من معرفةٍ بالنفس الإنسانية...».



يبدو أن الاستطراد بعيدًا عن الفلسفة - وفي واقع الأمر، الاستطراد بوجه عام - يتخلل جميع أعمال نيتشه التي تعود لعام ١٨٨٨، وهو عامه الأخير المثمر في الكتابة. وتتسم هذه الأعمال بأنها متحررة من الفلسفة، في الشكل والمضمون معًا. ويؤكد كتاب «هذا هو الإنسان: كيف للمرء أن يصبح ما هو عليه» افتتان نيتشه الذي لازمه مدى الحياة بفن السيرة الذاتية، وفيه تفتقر النبرة بشدة إلى الشكل، وتحمل ظلالًا من المعاني، وتمتلئ ببنيات مركبة يصبح من المحال خلالها العثور على نيتشه المؤلف أو نيتشه الشخصية. وحين يقرأ المرء كتاب «غسق الأوثان، أو، كيف نتعاطى الفلسفة قرعًا بالمطرقة»، يتكون لديه انطباع بأن نيتشه يجمع دليلًا إرشاديًّا في الأسلوب، مستعينًا في ذلك بجميع أساليب الكتابة، بداية من المقالات المدبَّجة وحتى الشذرات ذات الرؤية الثاقبة وشعر النشوة - وهي براعة أسلوبية متعددة الأوجه تعبر عن اهتمام نيتشه بالفلسفة بوصفها أسلوبًا. وهناك بعد ذلك الخطاب السجالي في كتابَيه «نيتشه ضد فاجنر» و«قضية فاجنر»، وهما يمثلان نثرًا مفارقًا للغاية

ولكنه مبهج، وفيه ينفصل نهائيًا عن فاجنر والرومانتيكية والمثالية والقومية وكل شيء تقريبًا...

وفي ظل نهاية شديدة الأسطورية كتلك التي شهدها نيتشه، لا بد أن تنشأ مجموعة متنوعة من الدراسات حول أعماله غير المنشورة، وكأنما تلمح إلى أن مجموعة الكتابات والجثمان ربما امتزجا أخيرًا عبر الصفحات الكثيرة التي تضمها الدفاتر التي ظل نيتشه يحتفظ بها طوال حياته. لقد كانت الأسئلة المعتادة تُطرح منذ مدة طويلة -- هل ينبغي اعتبار المخطوطات والمراسلات والملاحظات التي خلفها نيتشه بعد رحيله جزءًا من أعماله، وإذا جاز ذلك، فكيف ينبغي للمرء أن يفهمها؟ هل باعتبارها مؤلفات لم تكتمل أو مجرد مسودات غير دقيقة وأفكار شاردة؟ ثم هناك الأعمال التي كانت إما غير منشورة وإما غير مكتملة، مثل كتابه المبكر عن التراجيديا الإغريقية، ومحاضراته حول فلسفة ما قبل سقراط، وإحالاته الكثيرة إلى كتاب يشير إليه بعناوين مختلفة مثل «إرادة القوة» أو «إعادة تقييم جميع القيم»، وهو كتاب كان على الأرجح سيكون أعظم مؤلفات نيتشه (... ومن ثَمَّ فهو كتاب قُدر له أن يظل منقوصًا). وماذا عن الكتاب الذي حررته ونشرته إليزابث، شقيقة نيتشه المخادعة «إرادة القوة» - وهو كتاب تم جمعه وتحريره بعد الانهيار العصبي الذي أصاب نيتشه، وأخذت النزعة القومية لدى إليزابث في الحسبان خلال تكوينه؟ وأخيرًا، بالنسبة إلى أولئك القراء الذين لا يسعهم إلا أن يجدوا معنى ما في إرث نيتشه كله، هنالك حتى «رسائل الجنون» الأخيرة التي يجب النظر فيها، وهي رسائل خطية ذات طابع سريالي ومفعمة بالنشوة، وقد وجهها نيتشه إلى بعض أصدقائه وزملائه وكذلك لأشخاص غُرباء تمامًا... وتقول رسالة إلى جورج براندس، وهي تعود بحسب خاتم البريد إلى اليوم التالي لحادثة انهيار نيتشه: «إلى صديقي جورج! حينما اكتشفتني، لم يكن عملًا فذًّا أن تجدني: الصعوبة الآن هي أن تفقدني...».

~ * ~

وحول تأثير نيتشه عليه، كتب جورج باتاي ذات مرة: «وأنا مثله أجد متعة في الاستهزاء بهؤلاء الموجودين على الشاطئ من منظور سفينة مهجورة...».

~ * ~

على الرغم من النظر إليه عمومًا بوصفه فيلسوفًا، فإن نيتشه ذاته لم يكن متيقنًا تمامًا من ذلك. وبحكم هوس الفلسفة ببناء أنساق معقدة، ربما مثلت نمطًا شديد الاتساق لم يُطِقه نيتشه. ولعله كان ينشد فلسفةً أقل نزاهة. وتقول شذرة لا يفتأ يرددها: «إنني لا أثق بأصحاب الأنساق وأتحاشاهم أجمعين. إن إرادة النسق هي افتقار للنزاهة».

ومع ذلك، ظل نيتشه يكتب حتى لم يَعُد قادرًا - أو حتى لن يعود قادرًا - على الكتابة. وتمتدح إحدى الشذرات في كتابه «إنساني، مفرط في إنسانيته»، «الفكرة التي لم تُستكمل بعد»:

> «وكما أن للشباب وللطفولة أيضا، لا للكهولة وحدها، قيمة في ذاتيهما، وأنهما ليسا مجرد جسور ومعابر، فكذلك هي الأفكار التي لم تستكمل بعد لها قيمتها أيضا. ولذلك ينبغي ألا يعذب المرء شاعرا بتفسير دقيق لأفكاره، بل يقنع بعدم يقينية أفقه، وكأنما الطريق إلى العديد من الأفكار ما زال مفتوحًا. دع المرء يقف على العتبة. دع المرء ينتظر حتى يتم التنقيب عن الكنز: حيث يبدو وكأن اكتشافا ميمونًا بالغ الأهمية يوشك أن يتحقق. ويحس الشاعر بعضا من فرحة المفكر حين يعثر على فكرة حيوية ويجعلنا نشتهيها إلى حد يجعلنا ننتزعها انتزاعًا؛ لكنه مع ذلك يرفرف حتى يدنو من رؤوسنا، ويتباهى بأجمل أجنحة فراشة - ولكنه على الرغم من ذلك يروغ منا».

~ * ~

وصف ذات مرة بول ديوسن، وهو أحد أصدقاء نيتشه خلال سنواته في المدرسة الداخلية في بفورتا، والذي سيترجم لاحقًا، حين يصبح باحثًا، «الأوبانيشاد» إلى الألمانية، وصف مسكن نيتشه في جزيرة سيلس ماريا في عام ١٨٨٧ بأنه «كهف ضيق وقذر» تتناثر فيه «فناجين قهوة فارغة وقشر بيض ومخطوطات ومستلزمات حمّام ملقاة وسط حالة من الفوضى» يقابلها سرير متروك دائمًا دون ترتيب.

~ * ~

بليز بسكال

٢٣ نوفمبر ١٦٥٤

~ * ~

نعرف عن حياة بسكال الكثير، وبعض الفضل في ذلك يعود للاهتمام الذي أولاه إياه هؤلاء الذين أحاطوا به وحاولوا أن يدركوا كُنه مفكرٍ كان يبدو أن له قدمًا راسخة في المنطق وأخرى في الإيمان. ولذلك، يظهر بسكال بصورٍ متباينة - فهناك بسكال العالم وبسكال الفيلسوف وبسكال عالم الرياضيات، وبسكال الصوفي وبسكال الناشط الديني وبسكال الناسك. وهناك الطالب النابغة في العلوم، الذي يعيد اكتشاف نظريات فيثاغورس بنفسه وهو في الثانية عشرة، وهناك المهندس المخترع الذي يصمم ويبتكر آلة حاسبة ميكانيكية («بسكالين») ولمَّا يبلغ التاسعة عشرة، وهناك عالم الرياضيات الذي يقوم بأعمال مبتكَرة في الهندسة والحساب والتفاضل والتكامل ونظرية الاحتمالات. وحين يصبح شابًّا يافعًا، يشرع في تأليف مقالة في الفيزياء لن يُقدَّر له أن يتمها وهي «رسالة في الفراغ». وخلال مشوار حياته يلتقي بسكال رموز عصره البارزين في الفلسفة والعلوم (ومنهم مارين ميرسين الذي كان شديد الإعجاب به، وديكارت الذي كان يعبر عن عدم إعجابه به). وتضاف إلى كل ذلك أعمال متنوعة في الهندسة المدنية واللغويات والبلاغة والأرصاد الجوية.

لكن الدين هو اللغز الأساسي في حياة بسكال. وغالبًا ما يأتي كُتاب السيرة الذاتية على ذِكر «تحوُّلين» مرت بهما حياة بسكال، ويفصل كلًّا منهما عن الآخر زهاء عشر سنوات. التحول الأول جرى في عام ١٦٤٦ حين تعرَّض والد بسكال لإصابة في عظام الحوض إثر حادث سقوط. وكان الأطباء الذين اعتنوا بوالده وقاموا برعايته حتى تعافى، كما سيكتشف بسكال، أعضاء بجماعة دينية هي «الجانسينية» في دير «بور رويال دي شان». وعلى الرغم من أن بسكال، وكان حينئذ طالبًا متحمسًا يدرس الرياضيات والعلوم، سيظل متشككًا في أفكارهم الدينية، فإن إحدى شقيقتيه، وهي جاكلين، سوف تنضم لاحقًا إلى الجماعة. ولا يُعتبر هذا «التحول» الأول، بأي معيار من المعايير العصرية، تحولًا. ولكن هذه التجربة تغرس في بسكال بذرة فكرة سوف تظل تشغله بقية حياته، ألا وهي العلاقة بين المعرفة والشفاء وبين العقل والإيمان.

سوف يأتي تحول بسكال الحقيقي لاحقًا وذلك في ليلة الـ٢٣ من نوفمبر ١٦٥٤، كما يذكر بسكال نفسه. ويتمثل ذلك في رؤيا تأتيه على غرار رؤى الزهاد المسيحيين في العصور الوسطى، ويرويها بسكال عبر نص قصير يُعرف باسم «الذكرى». ويتوخى بسكال دقة بالغة في تدوين تجربته الخاصة، حيث يشير بصرامة علمية تقريبًا، إلى رؤيا تستمر معه «من العاشرة والنصف مساء تقريبًا وحتى ما بعد منتصف الليل بنصف الساعة». وبالإضافة إلى ما تضمه من إشارات متكررة إلى صور لاهوتية مسيحية، تفيض «الذكرى» بومضات صوفية عابرة مصحوبة بمشاعر متدفقة مثل: «النار. إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب لا إله الفلاسفة والعلماء»، و«اليقين واليقين النابع من الوجدان والفرح والسكينة»، و«العالم المنسي وكل ما هو عدا الإله»، و«يا إلهي لماذا تركتني؟»، و«الفرح، الفرح، الفرح، ودموع الفرح»، و«التخلي الحلو والكامل».

~ * ~

في أعقاب تجربته الصوفية، ينقطع بسكال انقطاعًا تامًّا تقريبًا عن الاشتغال بالرياضيات والعلوم. ويدخل أيضًا في خلوات كثيرة في دير «بور رويال». وحين تتعرض جماعة «بور رويال» للهجوم في عامَي ١٦٥٦ و١٦٥٧، ينبري بسكال للدفاع عنها عبر كتابته سلسلة من الرسائل المجهولة والتي عُرفت باسم الرسائل الريفية. ويتظاهر فيها بسكال، مستعينًا بأسلوب فكاهي وهجائي، بأنه يكتب إلى صديق عن أحداث جارية، ثم يتهكم على السياسات الدينية التافهة لعصره، ولا سيما الصراع المستمر بين اليسوعيين والجانسينيين. انتشرت الرسائل وحظيت بقراءة واسعة، وذاع صيت بسكال بالمنطقة. أتاحت الرسائل أيضًا لبسكال فُرصًا للتأمل في التعقيدات التي تكتنف التجربة الدينية، وعلى مدى السنوات القليلة المقبلة سوف تتطور هذه الأفكار وتغدو خطة لكتاب مهم في الدين، والذي أطلق عليه بسكال في الأصل اسم «دفاعًا عن الدين المسيحي». وفي نحو عام ١٦٥٨، وكان قد أضحى الآن عضوًا مهمًّا بجماعة «بور رويال»، يقدم بسكال إلى زملائه لمحة عامة عن «دفاعه».

لكن بسكال لن يُتم أبدًا مؤلفه الرائع. وتَسبب ما تركه منه بعد وفاته في حالة من الإرباك بين أفراد عائلته وزملائه. ولأنهم كانوا يرغبون في رفع بسكال إلى مرتبة القديسين أو الشهداء، اقترح أولئك الموجودون في «بور رويال» نشر «الدفاع» بصيغته غير المكتملة. ولكن حتى ذلك ثبتت صعوبته. أولًا، لم تكن الأوراق التي خلفها بسكال مُرتبة على أي نحو من الأنحاء. وزادت الأمر تعقيدًا طريقة بسكال في الكتابة. كان بسكال يستخدم في كتاباته صفحات ورقية كبيرة الحجم. وحالما ينتهي من كتابة جزء ما، كان يضع خطًّا أفقيًّا. وحالما تمتلئ الصفحة، كان يُقَسمها إلى قصاصات، ثم يجمع هذه القصاصات في رصة، ويربط كل رصة بخيط من الزاوية. ويشير الباحثون المختصون بسيرة بسكال إلى هذه الرصَّات بأنها «حُزم» وحسب.

وأحيانًا تُجمَع الحُزم معًا وفقًا لموضوعات معينة، وفي بعض الأحيان تتوافق هذه الموضوعات مع إحدى قوائم المحتويات التي وضعها بسكال. ولكنها

غالبًا ما تكون غير ذلك، ويبدو أن حُزمًا كثيرة لا يجمعها أي موضوع مشترك على الإطلاق. وأدى ذلك إلى نقاشات حول ما يجب فعله بالحُزم. وبينما أيد فريقٌ نشر المواد كما هي، باعتبارها أثرًا أو ذخيرة من ذخائره، دعا فريقٌ آخر إلى «تكملة» «دفاع» بسكال، استنادًا إلى عرضه الذي قدمه للكتاب في عام ١٦٥٨. وفي النهاية توصل الفريقان إلى حل توافقي. اختار المحررون – وهم من تيار جماعة «بور رويال» – الأجزاء التي شعروا أنها الأكثر اكتمالًا وقاموا بنشرها كما هي. كان تدخُّلهم ينحصر غالبًا في عملية الاختيار هذه، وفي ترتيب الأجزاء تحت عناوين بحسب مواضيعها (كثير منها لم يذكره بسكال نفسه). وأخيرًا، كانت هناك أجزاء أخرى كثيرة لم يتم تضمينها، لأنها، كما يذكر المحررون، كانت «بالغة الغموض أو يعتريها نقصان شديد».

~ * ~

عندما نشر أخيرًا زملاء بسكال في تيار «مدرسة بور رويال»، في نحو عام ١٦٦٩ أو ١٦٧٠، كتاب «خواطر السيد بسكال حول الدين وحول بعض الموضوعات الأخرى» (أو «الخواطر» كما تُعرف الآن)، عبروا عن حيرتهم وارتيابهم في مقدمة الكتاب:

> «حين تناهت إلى علمنا نية السيد بسكال للكتابة في أمر الدين، حرصنا كل الحرص، بعد مماته، على جمع كل ما كتبه في هذا الموضوع. وجدنا الأوراق كلها مثبتة معًا في حُزم مختلفة، ولكن دون أي نظام أو ترتيب يجمعها لأنها، كما قلنا سابقًا، كانت مجرد مسودات أولية لأفكاره التي كان يدونها في قصاصات ورقية صغيرة حين تخطر له. وكان كل ذلك غير مكتمل تمامًا ومكتوبًا بخط سيئ للغاية، حتى إننا واجهنا أكبر صعوبة يمكن تخيلها في قراءتها على أي وجه من الوجوه».

تحمل نبرة المقدمة إحساسًا بخيبة الأمل، كما لو أن ما كان يأمل الكثيرون أن يكون مثالًا للتجربة الصوفية للتنوير انتهى الأمر به لأن يكون جذاذات

متباينة واعترافات كثيرة يشوبها التردد. (وتكتسب تعليقاتهم إحساسًا إضافيًّا بالمفارقة نظرًا إلى أن «الخواطر» كثيرًا ما تُدرَّس في المدارس الفرنسية اليوم بوصفها آية من آيات النثر الفلسفي). وتستمر المقدمة، مشيرة إلى أنه «حين رأيناها على هذه الحال، تَمكَّنا من قراءتها ودراستها بسهولة أكبر مما كانت عليه في المخطوطات الأصلية، وكانت تبدو في حالتها الأولى عديمة الشكل، وتفتقر بشدة إلى الترتيب، وفي معظمها لم يُفسر منها إلا أقل القليل، حتى إننا لم نفكر قَطُّ في طباعتها...».

~ * ~

تفيض شظايا «الخواطر» بما تبدو للقارئ الحديث أنها مقولات تشاؤمية الطابع عن الحالة البشرية: «ولا يعزينا في شقائنا إلا اللهو»، و«ننشد الحقيقة ولا نجد في نفوسنا إلا ارتيابًا»، و«لما عجزنا عن التحرر من الموت والشقاء والجهل، رأينا أن نصرف التفكير عن هذه الأشياء لكي نكون سعداء»، و«أشد ما يدهشني أن أرى الناس جميعًا لا يدهشهم ما بهم من ضعف»، و«نحن في الحقيقة لا نعيش أبدًا، ولكن نأمل أن نعيش، وما دمنا نبحث دائمًا عن كيف نكون سعداء، فحتمًا لن نكون كذلك أبدًا».

لكن هذه التأملات وغيرها مما يدور حول اليأس هي حيلة يحتالها بسكال. ليس معنى ذلك أن يأسه كان زائفًا، بل على النقيض تمامًا. لكن كل إقرار يقدمه بسكال عن حياة عاشها دون الإله، يأتي دائمًا مصحوبًا بـ«المنطق» الغريب للإيمان والحياة التي عاشها في معية الإله وفيه. ويستعين بسكال بأسلوب سوف يستغله نيتشه أيضًا - إذ لا يأخذ القارئ إلى هوة اليأس والحزن والشك، إلا لكي يخرجه من الناحية الأخرى. وهذا، بالطبع، يفترض أن المرء يخرج من الناحية الأخرى، وأن الضوء في نهاية النفق لا يصبح مجرد نفق في نهاية الضوء. إن ما يشير إليه الفلاسفة بعبارة «رهان بسكال»، هو بالضبط هذه

الحيلة - هل يمكنك مواجهة «بؤس الحياة وشقائها»، وأيضًا قبول احتمالية أنه حتى عندئذ، وأنت في هوة الحزن، لن تكون أقرب إلى الإله مما كنت عليه حين بدأت؟ وتلخص فقرة من «خواطر» هذا اللغز كما يلي:

«حين أتأمل حياتي القصيرة وقد ابتلعها الأزل السابق والأبد اللاحق - كِذكر ضيف نزل يومًا ثم ارتحل - وفي الحيز الصغير الذي أشغله والذي أراه مبتلعًا في الفضاءات الهائلة واللامتناهية التي أجهلها وتجهلني، أرتعب وأعجب أن أراني هنا لا هناك، والآن لا حينذاك. مَن ذا الذي وضعني هنا؟ وبمشيئة مَن وبتدبير مَن أصبح هذا الزمان والمكان لي؟».

إذا كان بسكال مفكرًا متشائمًا، فإنه تشاؤم يتردد صداه دائمًا في ورعه الديني.

~ * ~

يرى بسكال أن هناك صنفين من الناس في هذا العالم - هؤلاء الذين هم «مِن شكهم ينتحبون»، وأولئك الذين «يعيشون الحياة دون تفكير». فأي الفريقين يعيش حياة ذات مغزى؟ وأيهما أحظى بالرضا والسعادة؟

بحسب مفكر مثل بسكال، يتضافر الإيمان والعقل مع مسألة اللابشري. هنالك، كل شيء غارق في الظلام. لا يوجد حضور إلهي مبهج ومتلألئ، لا يوجد سوى الإله المحتجب[١]، ليس هناك سوى إله خفي. وبالنسبة إلى بسكال، فإن هذا كله حيلة يحتالها. اليأس والشك والأسى وسيلة إلى غاية - يريد بسكال أن يرينا الهوة السحيقة للحياة من دون إله، حتى ننتقل، ونحن في غمرة حزننا، نحو حياة في معية الإله. الإله المحتجب - رهاب حبس إلهي.

~ * ~

(١) «Deus absconditus» أو «الإله المحتجب» هو مفهوم أساسي في الرؤية المأساوية للعالم لدى بسكال. (المترجم).

عانى المفكر شديد الورع والذي تأمل طويلًا في أسرار الموت، عانى مرضًا مزمنًا لازمه طوال حياته. وفي السنوات الأخيرة من حياته القصيرة نسبيًّا، تركت المضاعفات التي يُرجح أنها كانت ناجمة عن مرضِ السل أو السرطان أثرًا بالغًا على بسكال. وحين لم يَعُد قادرًا على تركيز انتباهه لأي مدى زمني، لزم فراشه قبل أن ينتقل في النهاية للعيش مع شقيقته جيلبرت، حيث قضى أيامه الأخيرة. ولأن نوباتٍ عصبية كانت تعصف به على نحو متكرر، فسوف تكتب شقيقته لاحقًا موجزًا بعنوان «حياة السيد بسكال»، وفيه تقدم وصفًا صادمًا لحالة بسكال الجسمانية: «... في منتصف الليل تقريبًا كانت تنتابه تشنجات بالغة الشدة، حتى إننا كنا نحسبه، حين تنتهي، قد فارق الحياة». وكان بيير بورييه، وهو قس بكنيسة مجاورة، يكلأ بسكال بعنايته، وكذلك كان زملاؤه وأصدقاؤه. لكن هذه العناية كانت تقابلها تشخيصات مَرضية غامضة، وعلاجات غريبة قدمها له أطباء، كانوا في صراع دائم مع زملاء بسكال المنتمين إلى دير «بور رويال دي شان»، والذين رفضوا بشدة، على الرغم من توسلات بسكال اليائسة، أن يمنحوه الطقوس الأخيرة حتى فات أوانها تقريبًا. ويضاف إلى ذلك فضول بلغ حد الهوس بجثمان بسكال خلال عملية التشريح التي أعقبت وفاته. كان زملاء بسكال المتدينون، بلا شك، يتطلعون للحصول على أثرٍ من بقاياه، فيما كان الأطباء أشد حرصًا على تعزيز رؤية علم الطب. ويبدو أن ثنائية الدين والعلم ظلت تتعقب جسد بسكال حتى مماته وبعد مماته.

~ * ~

بعد التحول الذي اعتراه، لم يدون بسكال تجربته في «الذكرى» فحسب، بل أخذ الرَّق وخاطه داخل بطانة سترته حتى تظل دائمًا بالقرب من قلبه (و«القلب»، كما في مقولة بسكال الشهيرة، «له منطِقه الذي لا يدري عنه

المنطق شيئًا»). ولكن واجهته مشكلة، وهي أنه عاجلًا أم آجلًا، سوف يكون على بسكال أن يبدل سترته. وجاءه الحل بسيطًا. سوف يحيك بسكال رَق «الذكرى» في السترة الجديدة، ويقوم بذلك مرة تلو أخرى كلما لزم الأمر (للأسف لا نعرف كم سترة كانت لدى بسكال، وكم مرة كان يبدلها في يوم أو أسبوع بعينه). وتَظهر الجدية التي مارس بها بسكال هذه الطقوس ومواظبته عليها دون انقطاع في كون الرَّق قد اكتُشف، بحسب إحدى الروايات، مخاطًا في السترة التي كان يرتديها حينما وافته المنية. كانت إماتةً للجسد ظل بسكال يمارسها حتى لحظة مماته.

(لست أدري ما السبب، لكن جزءًا مني يشعر بخيبة أمل خفية لأن بسكال لم يقُم بالفعل بخياطة رَق «الذكرى» مباشرة في جسده، ولعله كان قد خاطها أسفل حلمته اليسرى مباشرة. وهناك ربما تقرحت في صدره وأزهرت شعرًا يشبه المحلاق لحجر أوبال أسود ومعتم، حتى تغمر جسده تدريجيًّا بالكامل - ولاحقًا جثته - في حبات كثيرة للغاية ومصفَّاة من الفكر الشاحب).

~ * ~

آرتور شوبنهور

١٣ مارس ١٨٢٠

~ * ~

كان آرتور شوبنهور مثالًا للعجوز المتذمر - حتى حين كان شابًّا يافعًا. وفي أحد كتبه يكتب قائلًا: «... والعالم ليس بأي حال من الأحوال وجودًا ضروريًّا وشيئًا يجب أن يكون... بل على العكس، إنه يقدم نفسه حتى كشيء عَرَضي، وبعبارة أخرى، كشيء كان من الأفضل ألا يوجد، بل ربما يمكن اعتباره شيئًا يجب حقًّا ألا يوجد».

ويؤكد هؤلاء الذين عرفوه معرفة مباشرة، وأولئك الذين عرفوه بما سمعوه عنه فقط، صورة شوبنهور الذي يدمدم بصوت خافت ويخربش بقلمه بشكل مستمر حول فلسفة كانت تشاؤمية إلى حدٍّ تَعَذر معه أن تحظى بالرواج وذات «نزعة صوفية» موغلة أو «طابع هندي» (كما ادعى منتقدوه) تَعَذر معهما أن تأخذها الأوساط الأكاديمية مأخذ الجد. ولا شك أن هذه السمعة قد عززتها الإساءات الكثيرة التي كان شوبنهور يستفيض فيها ويلفقها ضد الاتجاهات الفلسفية السائدة في عصره - وفي واقع الأمر، فإن رسائل شوبنهور العديدة التي يوجهها بحق الفلاسفة تستحق الاهتمام من حيث فرادتها الأسلوبية. ويتخلل النفي جميع أعمال شوبنهور تقريبًا، سواء اتخذ ذلك شكل انتقادات موجَّهة للثقافة، أو رغبة شديدة الطموح في الكشف عن لامعنى و«عدمية»

الوجود كله. وفي عام ١٨٤٦ قدم الشاعر هيرمان روليت الوصف التالي لكاره البشر ذي الستين عامًا، والذي كان غالبًا ما يتناول غداءه في مطعم «إنجليشر هوف» في مدينة فرانكفورت:

> «كان قوِي البنية ومتوسط القامة، ودائمًا ما يظهر بهندام حسن – وإنْ بثياب عتيقة التصميم نوعًا ما – وشعرٍ فضي قصير وسوالف مقصوصة بهيئة شبه عسكرية، وفيما عدا ذلك، فإنه ذو ذقنٍ حليق وناعم دائمًا وبشرةٍ وردية وعينين لامعتين ومنقطتين بالأزرق وعادة ما تبدوان مبتهجتين وشديدتَي الذكاء... وأصبح هذا الناقم الساخر، وإن بقي في الحقيقة فظًّا طيب القلب ومسالمًا ورفيق مائدة، أصبح مثارًا للسخرية من قِبل رجال أراذل في أرجاء المدينة ممن اعتادوا أن يهزأوا به بشكل متكرر، وإن كانوا قطعًا لا يُضمرون له إساءة».

~ * ~

على الرغم من أن شوبنهور كفيلسوف كان مشبعًا بميتافيزيقا عصره، فإنه كان يُولِي اهتمامًا مساويًا بالجوانب الغيبية للوجود المادي، وإن كان أقل ميتافيزيقية. «لا يوجد إلا خطأ فطري وحيد، وهو الفكرة القائلة: إننا نوجد كي نكون سعداء. وهو فطري كامن فينا، لأنه يتزامن مع وجودنا نفسه، وما كينونتنا برمتها سوى إعادة صياغة له، بل إن جسدنا هو رمزه».

~ * ~

في ١٣ مارس عام ١٨٢٠، في الواحدة ظهرًا، قدم شوبنهور ذو الـ٣٢ عامًا محاضرة في فلسفة السببية أمام هيئة التدريس بجامعة برلين. كانت المحاضرة بمثابة مقابلة لنَيل وظيفة. وفي صدارة الحاضرين جلس فيلهلم فريدريش هيجل، وكان حينئذٍ في بؤرة حركة فلسفية وثقافية لم يكن يضاهيها في نطاقها

وطموحها سوى ذات على قدر مساوٍ من العظمة. سوف ينال شوبنهور الوظيفة، لكن المحاضرة لم تمضِ بسلاسة. وأعقبها نقاش محتدم، قبل أن يُمنح أخيرًا إجازة بالتدريس في الجامعة.

كان هيجل يحظى بشهرة واسعة بين الطلاب في برلين - بل وفي الأوساط الفكرية الأوروبية عمومًا، وهو الفيلسوف الذي كان اسمه يُدوَّن بالفعل في سجلات تاريخ الفلسفة، والأحدث ضمن سلالة عريقة تمتد حتى ديكارت والأكويني وأفلاطون وأرسطو. كان شوبنهور قد التقى هيجل ورموز الفلسفة المثالية الألمانية الآخرين من أمثال فيشته وشيلنج. ولأنه كان قبل بضع سنوات طالبًا بجامعة برلين، فقد حضر شوبنهور الشاب محاضرات فيشته وشلايرماخر، بالإضافة إلى قراءاته الخاصة في أعمال أفلاطون وكانط. ولكنه حتى حين كان طالبًا، لم يكن يُظهر سوى الازدراء للصَّرعات الفلسفية، ولا سيما المثالية الألمانية، وهي فلسفة شبهها شوبنهور بـ«سمكة حبَّار تثير حول نفسها سحابة من الغموض لكيلا يدرك أحدٌ ما هي». وعن محاضرات فيشته، سوف يكتب شوبنهور قائلًا: «كان يقول أشياء تجعلني أتمنى لو وجهت مسدسًا إلى صدره»، وتمتلئ هوامش خطَّها شوبنهور بيده في أحد كتب فيشته بتعليقات يكتبها على عَجَل، مثل «هراء وهذيان» و«ثرثرة جنونية» وما إلى ذلك.

وقد أجج الرواج الكبير الذي حظيت به فلسفة هيجل وزملائه في ذلك الوقت سخط شوبنهور. وكثيرًا ما يشير إلى فيشته واصفًا إياه بأنه «ثرثار»، وإلى هيجل - الذي اختصه شوبنهور بأشد انتقاداته ضراوة - واصفًا إياه بأنه «دجال فظ وطائش»، وأنه «جعل الفلسفة مطية لأهداف الدولة»، وأنه لا يدعو إلا إلى «ظلامية ويسوعية بروتستانتية». وأما الأعداد الكبيرة من الفلاسفة والطلاب الذين اتبعوا هذه الاتجاهات، فإن شوبنهور ينعتهم بأنهم «أساتذة مأجورون للهيجلية»، ومجرد «نُسَّاخ لهراء فارغ»، وقد «أقسموا على تمجيد الرداءة». لكن اللائمة كانت دائمًا ما تُلقى على

هيجل وعلى «فلسفة الدولة» المتخمة بالرطانة التي كانت أعمالها تمثلها لدى شوبنهور. وفي أحد كتبه، يوجه شوبنهور أحد أشد تقريعاته إمتاعًا، حين ينعت الفلسفة الهيجلية بأنها «لغز هائل سيوفر حتى للأجيال القادمة مادة لا تنضب للسخرية من عصرنا، وفلسفة زائفة تشل كل القدرات العقلية...». كان نتاج هذه الهيجلية الجامحة، حسبما يرى شوبنهور، هو أنها «أحدثت خبلًا هائلًا في رؤوس الناس» عبر «نشر كلمات طنانة جوفاء وثرثرة هي الأشد افتقارًا للمعنى على الإطلاق، على الأقل خارج مستشفى المجاذيب».

كانت فلسفة كانط صعبة، نعم، ولم يكن كانط نموذجًا يحتذى في الأسلوب الأدبي - ولكن هذه الصعوبة على الأقل كانت تعادلها البنية المتماسكة في منظومة كانط. أما في حالة هيجل، حسبما يزعم شوبنهور، فلا نحصل إلا على مواقف فكرية:

> «وأشد ما يعيب شروح كانط المبهمة أحيانًا هو أن... ما كان فارغًا وبلا معنى احتمى في الحال بلغة وشرح مبهمين. كان فيشته هو أول من أدرك هذه الميزة واستغلها أيما استغلال. وعادله شيلنج على الأقل في هذا الأمر، ثم سرعان ما بزَّهما عددٌ كبير من نُسَّاخ جوعى يعوزهم الفكر أو النزاهة. لكن الصفاقة الأكبر هي تقديم هراء مطلق ونسج شِباك من كلمات فارغة تبعث على الجنون، مثل تلك التي لم تكن تُسمع سابقًا إلا في مستشفيات المجاذيب، ثم ظهرت أخيرًا لدى هيجل. لقد أصبحت وسيلة للإلغاز الأشد إضجارًا والأكثر عمومية على الإطلاق، ونتاج ذلك سيبدو مدهشًا للأجيال القادمة، وسيكون نُصبًا خالدًا للحماقة الألمانية».

ولكن السجال كان يمضي أحاديًّا في الغالب. كان يبدو أن هيجل، وفقًا لجميع الاعتبارات، لم ينتبه حتى لتهكمات شوبنهور الأصغر منه. وكان هذا الأخير، بلا شك، مجرد مشكك آخر يستمد شعورًا بالرضا عبر نحته في النُّصب الفلسفي الهائل الذي شيَّده هيجل. وفجأة تصبح الإهانات التي يطلقها شوبنهور هزلية وسجالًا أحاديًّا واتهامات بلا متهَم. ومع ذلك، اقترح

شوبنهور عنوانًا لمحاضرته جاء شديد العمومية ومفرطًا في الطموح، حتى إنه يصعب ألَّا تصدق أنه كان تهكمًا موجَّهًا إلى هيجل غير المكترث غالبًا: «فلسفة عالمية... أي تُعلم المرء جوهر العالم والروح البشرية».

~ * ~

تقوم فلسفة شوبنهور في جوهرها على فكرة حدسية أساسية مفادها أننا لا نعيش بقدر ما نُعاش. وبداية من أول مؤلفاته في المنطق وحتى آخر كتاباته التي اعتمد فيها الطريقة الشذرية، تعود فلسفته مرة تلو مرة إلى هوة أساسية تكمن في صميم الوجود البشري، وهي أننا موجودون في العالم وفي الوقت نفسه جزء منه. من ناحية، نحن عالقون في العالم الذي نحن جزء منه، ونلاحظه ونقيسه ونتفاعل معه، بل ونقوم بتهيئته على النحو الذي يحقق غاياتنا. ومن ناحية أخرى، ندرك أيضًا أننا كبشر دائمًا ما نفعل ذلك، من منطلق منظورنا الخاص، ومدفوعين بمصالحنا الخاصة التي هي على المحك. وهكذا، فإن لدينا حدًّا أدنى من الإدراك بأن العالم «الموجود هناك»، الذي نحن جزء منه والذي نتصرف تجاهه ونتفاعل معه، محجوب أيضًا عن إطارنا المرجعي الخاص، وأنه عالم «أكبر» منا ويعلو على إدراكنا ويدق عنه. من ناحية، عالم نوجه أنفسنا نحوه، وعالم تحول إلى إطار مرجعي خاص بنا، وصُنع على صورتنا - عالم من أجلنا. ومن ناحية أخرى، عالم يشملنا، ولا يعبأ بنا أو يبالي، وعالم موجود بالمنطقة العمياء لدى البشرية - عالم في ذاته.

وبحسب إحدى رؤى شوبنهور، فإن هذين العالمين هما في واقع الأمر عالم واحد، أو وجهان للشيء ذاته، العالم بالنسبة إلينا وقد أسماه «تَمثلًا»، والعالم في حد ذاته وأسماه ببساطة «إرادة». وبحسب شوبنهور، فقد أغفلت كل النقاشات الفلسفية اللامتناهية حول المثالية والواقعية والتجريبية والمادية

هذه النقطة الأساسية وهذا الثقب الأسود الموجود في قلب الوجود – وهو أننا محجوبون للأبد عن العالم في ذات الوقت الذي نبني معرفتنا عنه.

لم يكن هذا مجرد اهتمام أكاديمي لدى شوبنهور. بالنسبة إليه، كانت هذه الهوة الأساسية المتأصلة في قلب الوجود ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتجربة المعاناة الإنسانية. وتلخص إحدى مقالاته المتأخرة هذا الرأي:

> «... والحياة لا تقدم نفسها بأي حال باعتبارها هبة يُستلذ بها، ولكن كمَهمَّة ومشقة يجب خوضها. وبحسب ذلك، فإننا نرى، على نطاق واسع وضيق أيضًا، حاجة عامة وجهدًا لا يهدأ وضغطًا دائمًا وصراعًا لا ينتهي وعملًا قسريًا، مصحوبين بجهد مضنٍ تبذله جميع القوى الجسدية والذهنية. وهنالك ملايين، متحدون في أمم، يناضلون من أجل تحقيق الصالح العام، كل فرد يسعى لأجل مصلحته الخاصة، ولكن آلافًا كثيرين يسقطون ضحايا لذلك... الجميع يدفع ويضغط، والبعض يحيك ويخطط، فيما البعض الآخر ينفذ، فينشأ اضطراب يفوق أي وصف. ولكن ما الغاية النهائية من كل ذلك؟ الحفاظ على أشخاص عابرين ومنهكين عبر مدى زمني قصير، وفي أفضل الحالات مصحوبين بعوز لا ينقضي وانعدام ألم نسبي، ولكن الضجر يقف على الفور بالمرصاد لذلك... وحين يستحوذ ذلك عليه، فإن كل كائن حي يعمل بكل ما أوتي من قوة في سبيل شيء عديم القيمة...».

والمعاناة هي محور فلسفة شوبنهور، وهي إما تقوم عليها أو تسقط بسببها (وفي واقع الأمر، غالبًا ما تسقط، بل تنهار، لكن انهيارها هو ما يجعلها أكثر لفتًا للانتباه). لم يتفق شوبنهور فقط مع النصوص الهندية والبوذية القديمة التي طالعها والتي تفيد بأن المعاناة جزء لا يتجزأ من الحالة الإنسانية، بل كان وجود المعاناة في حد ذاتها كافيًا لديه كي يشكك في صوابية الوجود البشري وجدواه. وهو هنا يستهدف بشكل رئيسي التفاؤل الفلسفي: «... ليس التفاؤل عقيدة خاطئة فحسب، ولكنها خبيثة أيضًا، لأنها تقدم الحياة باعتبارها حالة منشودة، والسعادة باعتبارها هدفًا وغاية لها... فيما الأصح بكثير هو أن نعتبر

العمل والحرمان والبؤس والمعاناة، والتي تُتوج بالموت، هي هدف حياتنا وغايتها...». وفي كتابات أخرى يغدو أكثر صراحة ويقول: «في الواقع، لا يمكن ذِكر أي شيء آخر كهدف لوجودنا، فيما عدا الإدراك الذي مفاده أنه كان من الأفضل لنا ألا نوجد».

وهذا ما أسماه شوبنهور ذات مرة «لغز الوجود». أي شيء ذاك الذي يجبرنا على الاستمرار في العيش ونحن نعلم تمام العلم المحصلة النهائية؟ ويبدو أننا كبشر، سواء حُبينا بالوعي أو رُزئنا به، سوف نظل نتأرجح إلى الأبد بين قطبَي السعي أو الضجر:

> «إن السعي من أجل الوجود هو ما يستحوذ على جميع الكائنات الحية، ويجعلها في حركة دائبة. وحين يتحقق لها الوجود، لا تعرف ماذا عساها تفعل به. لذلك فإن الأمر الثاني الذي يحركها هو السعي للتخلص من عبء الوجود، وجَعْله غير محسوس، و«قتل الوقت»، وبعبارة أخرى، السعي للإفلات من قبضة الضجر».

~ * ~

حين يقرأ المرء فلسفة شوبنهور، يستشعر وكأننا لسنا سوى أشكال حياتية مجبَرة على العيش وكائنات مدفوعة إلى الكينونة، من قِبل قوة أخرى خارجية أكثر انبثاثًا ولاعقلانية، حتى وإن كنا ندرك جيدًا أن كل ذلك، في النهاية، سوف يذهب هباءً، وأن الذات التي بنيناها بعناية سوف تغدو في النهاية ترابًا أو رمادًا.

ولذلك يسمي شوبنهور هذا الإجبار اللاعقلاني على الوجود الإرادة (والتي تغدو في الكائنات الحية، ولا سيما البشر - «إرادة الحياة»). ويقول: «نحن لسنا سوى إرادة الحياة». وفي أماكن أخرى يقول: «جسدي وإرادتي هما شيء واحد»، والجسد هو ببساطة «إرادة متجسدة». لكن

شوبنهور لا يقصد بهذا المصطلح أي إحالة إلى علم النفس. والإرادة هي ببساطة الاسم الذي يستخدمه للتعبير عن الرؤية التي مفادها أننا لا نعيش بل نُعاش. وبالتالي، فإن الإرادة ليست رغبة أو فعلًا أو اختيارًا (ما يعني أنها ليست إرادة فردية). قد نريد أشياء ما، ونجترح أفعالًا ما انطلاقًا من هذه الإرادة، ولكن كل ذلك لدى شوبنهور هو آثار ثانوية منبثقة عن الإرادة في ذاتها.

وهذه الإرادة ليست إرادة لابشرية فحسب، بل هي أيضًا لاعاقلة ولامبالية ومنفصلة عن هموم أي كائن حي، سواء كان بشرًا أم لا، وهو ما يعبر عنه شوبنهور قائلًا: الإرادة «عمياء». الإرادة تريد، ولا شيء أكثر. ولا يهم أن يكون ذلك عبر هذا النوع أو ذاك، وعبر هذا الكائن أو ذاك. الإرادة تريد، ودون أي سبب. ومناط إرادتها، إن شئنا الدقة الكاملة، لا مغزى له.

ويجعل كل ذلك من شوبنهور صاحب فلسفة تشاؤمية تُوَلد لدى المرء إحساسًا بعبء الوجود الهائل، ناهيك بالحياة. وتصبح «الكينونة» - التي اعتبرها فلاسفة كثر ذروة التساؤل الفلسفي - في أيدي شوبنهور، مجرد دافع أعمى لا يبالي، يساق للأمام عبر قنوات مختلفة، ويُظهر ذاته بطرق لا حصر لها في العالم الصاخب الذي نجد أنفسنا ملقَون فيه. وما يسميه شوبنهور «العداء الداخلي» للوجود الإنساني على وجه الخصوص، هو الوعي بهذا الصدع القائم بين العالم باعتباره تمثلًا (احتياجاتنا وآمالنا ورغباتنا)، والعالم كإرادة (لا تكترث بتلك الاحتياجات والآمال والرغبات). ويصبح الكائن البشري أكثر قليلًا من ظاهرة عابرة تسعى وتعاني، فيما توجد من ورائه إرادة هادرة تدفع بنفسها قُدمًا.

~ * ~

بالنظر إلى الرؤية الرهيبة للوجود التي طرحتها فلسفته، لم يكن مستغرَبًا

أن يبحث شوبنهور عن سبل للتخفيف من حدتها، إن لم يكن رفضها كلِّيةً. فماذا عساه المرء أن يفعل حين يجد نفسه في مواجهة مع إرادة تدفع بلا كلل كل ما هو موجود إلى أن يوجد؟ يبقى الانتحار خيارًا، بطبيعة الحال، ولكن شوبنهور عارض الانتحار معتبرًا أنه يحل المشكلة بالنسبة إلى فاعله فقط، وأنه موقف يعيد المرء إلى عالم الاحتياجات والآمال والرغبات ذاته. ولن يفيد في ذلك سوى «انعدام للإرادة» لا يقل حدةً وإبهامًا عن الإرادة ذاتها. ويشير شوبنهور إلى طقوس الزهاد والمتصوفة والمتعبدين والنساك، وأولئك الذين يمارسون الرفض. لكن ذلك يظل في النهاية نهجًا تصالحيًّا. وإن شئنا الصدق، فإن قلةً منا فقط يمكنهم أن يكونوا على قدر هذه المهمة. كيف لنا أن نعيش بالعالم، ونرفض مع ذلك دراما السعي والضجر المضنية؟ كيف للمرء أن يعيش الحياة مناوئًا لها فيما يواصل عيشها؟ كيف ينبغي للمرء أن يتبنى طقوسًا تعادي الحياة، وهو في الحياة؟ هذه هي الأسئلة التي تُختتم بها فلسفة شوبنهور - فتبدو قاتمة وصعبة المراس ومترنحة. وليس من الواضح - بل حتى مشكوك به - ما إذا كانت حياته هي الجواب.

~ * ~

وبصفته أستاذًا بالجامعة، لم يسأم شوبنهور قَطُّ من التنديد بالفلسفة الأكاديمية: «لقد أصبحت الفلسفة في الجامعات سبيلًا للتكسب وكان في ذلك فسادها»، «وربما كانت ستوجد فائدة ما لأساتذة الفلسفة لو أنهم قنعوا بمهمة أن يُعلِّموا بإخلاص ما يفكر به الفلاسفة الحقيقيون... لكنهم يطرحون للبيع موادَّ هي الأشد سخفًا، وهذا هو ما جرى في ألمانيا على مدى خمسين عامًا». ونظرًا إلى أن شوبنهور كان دائمًا شخصًا عمليًّا، فإنه يطرح الحل كما يلي: «من الجلي الواضح... أنه لا شيء أنفع، يمكن عمله

من الخارج ومن الأعلى، للفلسفة من إلغاء مناصب الأستاذية فيها». لكن شوبنهور يعود ويقرر: «وحده المنطق وعلى الأكثر تاريخ عام وواضح للفلسفة هما ما يجب أن يُسمح للأساتذة بتدريسهما...».

~ * ~

وعلى الرغم من محاولاته الساعية لاستفزاز هيجل ورفاقه، فإن شوبنهور سوف يُدرِّس الفلسفة بالفعل في جامعة برلين. ومع ذلك، لم يكُف عن تهجمه على الفلسفة الأكاديمية. كان شوبنهور يختار بشكل صريح لمحاضرته أن تتزامن تمامًا مع محاضرة هيجل. ولم يكن لطموح المنهج المقترح، ولا لطلب شوبنهور الصريح بأن يتزامن توقيت محاضرته مع توقيت محاضرات هيجل، لم يكن لهما إلا أن يصيباه بالإحباط. وهناك روايات متنوعة تذكر تفاصيل هذا الإحباط. ولما كان اليوم الأول للمحاضرات في صيف عام ١٨٢٠، لم يحضر محاضرة شوبنهور، حسبما قيل، سوى خمسة طلاب، فيما جاءت محاضرة هيجل التي عُقدت في قاعة مجاورة، كاملة العدد، كما حالها دائمًا. (وهناك رواية أخرى، ولا بد أنها مختلَقة، وهي أن شوبنهور حين ألقى محاضرته في الأسبوع التالي، لم يحضر أحد على الإطلاق - ومع ذلك ألقاها شوبنهور غير عابئ).

إن العَدَاء الذي يحمله شوبنهور إزاء الاتجاهات الفلسفية التي سادت عصره، يعيد إلى الأذهان دورات حياة «النظرية» الرائجة في الأوساط الأكاديمية وعالم الفن اليوم - حيث تغص قاعات المحاضرات أو صالات العرض بالساخطين والمتحمسين، الذين يريدون بوضوح أن يكونوا هناك، ولكن لا شيء أكثر من ذلك. ومن الصعوبة بمكان أن نتخيل أن شوبنهور الأصغر سنًّا والأقل خبرة وشهرة، كان يعتقد حقًّا أن بوسعه أن يتحدى شعبية هيجل، ناهيك بسياسة القوة التي اشتُهر هيجل بممارستها عبر المشهد

الفكري في ألمانيا. وتبدو اللاجدوى واضحة في إشارة شوبنهور: الأحرى بالمرء أن يكون واثقًا بفشله من أن يكون مرتابًا به.

~ * ~

كانت المدة التي أمضاها شوبنهور في برلين قصيرة، وامتلأت بخيبات الأمل. فشل مسعاه لاكتساب جمهور إلى مؤلفاته، ولم تستقطب محاضراته سوى حضور ضئيل، وقوبلت تهكماته التي وجهها إلى هيجل وأتباعه بالتجاهل في أغلب الأحوال. وباءت محاولاته الكثيرة لإتمام العديد من مشاريع الترجمة ونشرِها بالفشل (شملت مشاريعه في الترجمة إلى الألمانية كتاب «فن الحكمة الدنيوية» للإسباني بالتاسار جراسيان، ورواية «حياة ورؤى تريسترام شاندي» للأيرلندي لورنس ستيرن). وانتهت علاقة شوبنهور المتقطعة التي دامت عقدًا من الزمن مع كارولين ريختر، وهي فتاة بفرقة كورال في برلين كانت تصغره بسنوات كثيرة. وعانى أيضًا سلسلة من الأمراض شملت اضطرابًا عصبيًّا أصاب يديه، وفقدان السمع بإحدى أذنيه، ومراحل أولية من التهاب المفاصل، واكتئابًا مزمنًا. وقد اضطر للتعامل مع الدعوى القضائية التي اتُّهم بموجبها بالاعتداء على كارولين ماركيه، وهي حائكة ملابس اشتكى منها شوبنهور في رسائله مرارًا وتكرارًا – ويبدو أن النزاع الأول الذي نشب بينهما كان يعزى للضوضاء الشديدة التي تصنعها كارولين في بئر السلم الخاص بالمبنى الذي يسكنه، واتهمت ماركيه شوبنهور بالاعتداء عليها لفظيًّا وجسديًّا. وفي مقال قصير سوف يكتب شوبنهور لاحقًا: «يجب أن نلتزم أعلى درجات التحضر فقط حين لا يستحل أحدٌ آذاننا، ولا يعود من حق أي أحد أن يخترق وعي كل كائن مفكر وهو في طريقه ذي الألف خطوة، عبر الصفير والعواء والخوار والطَّرق والفرقعة بالسوط والسماح للكلاب

بالنباح وما إلى ذلك». وفي عام ١٨٣١، وصل وباء الكوليرا إلى برلين، وعندئذ يقرر شوبنهور الارتحال عنها.

وعقب هذه الخيبات، هجر شوبنهور الأوساط الأكاديمية تمامًا، واستقر به المُقام في نهاية الأمر في فرانكفورت. وفي سيرته الذاتية، يقدم آر. جي. هولينجديل تلخيصًا لهذه المرحلة الأخيرة من حياة شوبنهور:

> «منذ بلوغه سن الخامسة والأربعين وحتى وفاته بعد ذلك بسبع وعشرين سنة، عاش شوبنهور في فرانكفورت آم ماين. كان يعيش بمفرده، في «غرف»، حيث ظل على مدى سبع وعشرين سنة يتبع نمطًا حياتيًا واحدًا كل يوم. كان يستيقظ كل صباح في السابعة حيث يتحمم ولا يتناول فطورًا، ثم يشرب كوبًا من القهوة الثقيلة قبل الجلوس إلى مكتبه والبدء في الكتابة حتى وقت الظهيرة. وبحلول الظهيرة، كان يتوقف عن العمل بقية نهاره ويخصص نصف ساعة للعزف على الناي، الذي كان عازفًا بارعًا عليه. وكان يخرج عندئذ لتناول طعام الغداء في مطعم «إنجلشر هوف». وبعد الغداء يعود أدراجه إلى البيت حيث يقرأ حتى الرابعة، قبل أن يخرج في ممشاه اليومي، حيث اعتاد أن يمشي لساعتين مهما كانت حالة الطقس. وفي السادسة، يذهب إلى قاعة القراءة بالمكتبة كي يقرأ صحيفة «ذا تايمز». وفي المساء، كان يذهب إلى المسرح أو يحضر حفلة موسيقية، وبعد ذلك يتناول عشاءه بفندق أو مطعم. ويعود إلى البيت بين التاسعة والعاشرة ويأوي مبكرًا إلى فراشه. وكان مستعدًّا للتخلي عن هذا النمط الحياتي كي يستقبل زواره. ولكن فيما عدا هذا الاستثناء، فقد ظل محافظًا على ذلك طوال سبع وعشرين سنة».

ويضفي باحثون آخرون في سيرة شوبنهور الذاتية مجموعة من التنويعات والإضافات على هذه الصورة. كان شوبنهور يكتب لمدة لا تتجاوز ثلاث ساعات كي يتجنب أن يصبح «ناسخ هراء كما هيجل». لم يكن يعزف على الناي وحسب، بل كان يجمع النايات وغيرها من الآلات الموسيقية أيضًا، وحين يعزف، كانت موسيقاه المفضلة هي موسيقى روسيني (لا، كما قد

يتوقع المرء، موسيقى مالر أو فاجنر). وفي واقع الأمر، حين أرسل فاجنر إلى شوبنهور نسخة من نص أوبرا «Der Ring des Nibelun»، بعث إليه شوبنهور برد قصير، نوه فيه أنه ينبغي لفاجنر أن يتوقف عن تأليف الموسيقى ويهتم بدلًا من ذلك بكتابة الشعر.

~ * ~

واظب شوبنهور على ممشاه سواء كان الجو ممطرًا أو مشمسًا. وللمرء أن يتخيل كيف كان يغضب ويسوء مزاجه حين ينهمر المطر عليه. ولكن حتى حين يصبح الجو مشمسًا، كان أهل البلدة يرونه متبرمًا يدمدم بكلمات غير مسموعة. وكان تلاميذ المدارس يرمونه أحيانًا بالكرات في أثناء مروره بهم.

~ * ~

حين كان شوبنهور يدخل مقهى أو مطعمًا، كان عادة ما يراهن على قطعة نقود معدنية عند دخوله، وذلك كي يقدمها لأي أحد يُظهر أي قدر من الذكاء في الحوار - حتى إنه كان يتحدث بصوت عالٍ عن الوقاية من الأمراض التناسلية كي يجعل الرهان أسهل (يظن المرء ذلك). وفي طريقه للخروج كان يسترد نقوده.

~ * ~

في عشرينيات القرن التاسع عشر، يكتب شوبنهور في أحد دفاتره: «إذا قيل إن الحياة، من البداية إلى المنتهى، ما هي إلا درس مستمر، وفوق ذلك، نتائجه غالبًا سلبية، فقد أرد قائلًا: لأجل هذا السبب وحده، كان يجدر بي أن

أُؤثِر البقاء في عدمٍ هادئ ومكتفٍ بذاته، حيثما لا أكون بحاجة إلى دروس أو إلى أي شيء آخر».

~ * ~

يُعتبر شوبنهور مثالًا للمتشائم مطلق التشاؤمية، وهذا ما يجعل تشاؤمه مثارًا للاهتمام - إذ يصعب أن نعزوه فحسب إلى حادثة رئيسية في حياته. ومنذ سن مبكرة، يبدو أنه كان طبعًا شكَّل جانبًا من شخصيته. وحين يكتب شوبنهور عن جولته التي قام بها عبر أوروبا وهو في سن المراهقة قبل نحو خمسٍ وعشرين سنة، يقارن سخطه وهو شاب بأمثولة بوذا حين شاهد العالم للمرة الأولى من خارج قصره:

> «في السنة السابعة عشرة من عمري، ولم أكن قد حصلت على أي تعليم مدرسي، استحوذ عليَّ الشعور بشقاء الحياة، مثلما كان حال بوذا وهو في شبابه حين رأى المرض والشيخوخة والألم والموت... وخلصتُ إلى أن هذا العالم لا يمكن أن يكون من صنع كائن بار، ولكن بالأحرى من صنع شيطان، جاء بالمخلوقات إلى الوجود كي يتلذذ برؤية معاناتها...».

يتكرر هذا الشعور الذي يكاد يكون غنوصي الطابع في الانتقادات التشاؤمية اللاذعة المبثوثة في كتابَي شوبنهور «العالم إرادة وتمثلًا» و«الحواشي والبواقي». ولكنها أيضًا لا تخلو من حس دعابة صارخة ومريرة. ويقول في كتابه «العالم إرادة وتمثلًا»: «إن حياة كل فرد، حين ينظر إليها نظرة عامة وكلِّيةً، وحين ينصب تركيزه على أبرز ملامحها فقط، هي حقًّا مأساة، ولكن حين تُعاش بتفاصيلها تكتسب طابع الملهاة».

ووفقًا لإحدى الروايات، فإن شوبنهور حين كان يقيم في فرانكفورت، طلب من زميل له كان يتأهب للذهاب في رحلة إلى الشرق الأقصى أن يجلب له تمثالًا لبوذا. أوفى زميله بالتزامه، وبمجرد أن أصبح التمثال في

حوزته، قرر شوبنهور طلاء تمثال بوذا الأسود بالذهب. لم يسعه الفرح، وسُر الفيلسوف، الذي يَظهر متذمرًا في غير ذلك، أيما سرور بتمثال بوذا حتى بات يفكر في عرضه على قس لوثري في المنطقة: «ليت القس الموقر كالب من زاخسينهاوزن يأتي، هذا الذي يقول بأنفاس لاهثة من فوق المنبر: «بل حتى البوذية يُسمح لها بدخول البلدان المسيحية!»... أيها القس كالب الموقر! انظر هنا! أوم ماني بادمي هوم»[1]!

وتشير إحدى الروايات إلى أن التمثال وُضع بغرفة النوم في شقة شوبنهور في فرانكفورت، في مواجهة سريره مباشرة. لكن رواية شوبنهور نفسه تشير إلى أنه قد وضع تمثال بوذا بفخر كبير في غرفة الاستقبال:

> «إنه أصلي تمامًا ويظهر بالهيئة التقليدية الكاملة، أظن أن مصدره هو المسبك الكبير في التبت، ولكنه قديم بالفعل. سوف يزين منضدة بالزاوية في غرفة المعيشة، وسوف يعرف الزوار الذين يدخلون الغرفة في جميع الأحوال برجفة مقدسة وبثياب بالغة الأناقة - أين هم على الفور، في هذه القاعات المقدسة».

يمضي شوبنهور في مقارنة تمثال بوذا التبتي الأنحف والذي يبدو أكثر طمأنينة، ببوذا الصيني «الأقصر والأسمن» الذي بحوزة تاجر إنجليزي ثري في فرانكفورت. ويقول شوبنهور: «كلاهما يُظهر نفس الابتسامة التقليدية الشهيرة واللطيفة. الوضعية والرداء وتصفيفة الشعر وزهرة اللوتس: جميعها متماثلة تمامًا!».

وبحسب رواية أخرى، يضع شوبنهور تمثال بوذا بطريقة تجعله مرئيًّا بوضوح لكاهن يعيش بمبنى مواجه له مباشرةً، وفي الصباح تسطع الشمس على التمثال فيغمر شقة الكاهن بالضوء بشكل غير مباشر.

~ * ~

---

(١) تعويذة بوذية شهيرة. (المترجم).

إن أحد الجوانب الفريدة في فلسفة شوبنهور هو تأثرها بالفكر الشرقي. وفي السنوات التي أعقبت وفاته مباشرة، تناول فلاسفة كثيرون «التصوف الشرقي» لدى شوبنهور بطرق شتى، بعضهم (مثل نيتشه) بشكل انتقادي تام. وكان الباحثون عمومًا يميلون في العادة إلى إغفال هذا الجانب من فكر شوبنهور، وينعتونه أحيانًا بأنه من بقايا استشراق القرن التاسع عشر، وفي أحيان أخرى يكتفون بالإشارة إلى أن شوبنهور أساء قراءة «الأوبانيشاد» أو فهمها على نحو خاطئ. ومع ذلك، فقد أعادت دراسة حديثة النظر في علاقة شوبنهور بالفكر الشرقي بأسلوب أكثر صرامة، وهي تُظهر لنا مفكرًا روحانيًّا يتملكه إحباط شديد إزاء الفلسفة الغربية، ويحاول جاهدًا أن يجد طريقة يدمج من خلالها مفاهيم تنتمي لموروثات شديدة التباين.

وفي إحدى رسائله، يشير شوبنهور إلى أنه تَعرَّف على الفلسفة الهندية الكلاسيكية في عام ١٨١٣ أو ١٨١٤ تقريبًا من خلال المستشرق الألماني فريدريش ماير. كانت دراسة أديان الشرق القديمة تلقى حينئذ رواجًا، وكان العمل يجري لتوفير الترجمات الأولى لمجموعة من أهم النصوص في الهندوسية والبوذية. وعبر عملية ترجمة وتحرير مضنية وإضافة حواشٍ لنصوص كلاسيكية، تواصل البحث الفكري عن دين جميع الأديان وأصل الدافع الديني - أو ما يُسمى «الدين البدائي». وخلال فترة من الزمن، ساد اعتقاد مفاده أن نصوص الحكمة الهندية القديمة هي ما شكَّل هذا الدين البدائي الذي انبثقت عنه جميع الأديان.

وربما يكون ماير هو مَن أرشد شوبنهور الشاب إلى ترجمة أبراهام هياسينت أنكيتيل دوبيرون لكتاب «الأوبانيشاد» (١٨٠١-١٨٠٢)، وكان يُعرف آنذاك باسم «الأوبنيكهات» (وهي ترجمة لاتينية لصيغة فارسية للكلمة بالسنسكريتية). وبينما كان شوبنهور يعكف على تأليف الكتاب الذي سيكون سبب شهرته وهو «العالم إرادةً وتمثلًا»، إذا به يعثر على

الكتاب في مكتبة «فيمار»، بالإضافة إلى طبعة فرنسية من كتاب أنطوان لويس بولبير «ميثولوجيا الهندوس» الذي نُشر في عام ١٨٠٩. وفي الوقت نفسه تقريبًا، حصل شوبنهور أيضًا على أعداد كثيرة من المجلة الأسيوية. وقد تَضَمن أحد الأعداد الذي يعود لعام ١٨٠٢، ترجمة ماير لكتاب «بهاجافاد جيتا»[1]، وهي ترجمة سوف يستعين بها شوبنهور في تأليفه كتاب «العالم إرادةً وتمثلًا». ولا بد أن مقدمة ماير التمهيدية لكتاب «بهاجافاد جيتا» بدت وكأنها دعوة إلى شوبنهور، الذي كان يصوغ حينئذٍ فلسفته الخاصة حيث يقول: «لن يعجز أي قارئ مهتم عن إدراك أن هذه الأفكار والأحلام، التي لا يقل عمرها عن أربعة آلاف عام... يجمعها رباط رائع بما كان يؤمن ويفكر به أفلاطون أو سبينوزا أو جاكوب بوهمه في أزمنة ومناطق متباينة للغاية من العالم...». سوف تَعْقب ذلك قراءات في أسفار «الفيدا» وفي نصوص أقل أهمية حول بوذية الماهايانا وبوذية التبت وبوذية الزِّن. وسوف يستشهد شوبنهور بهذه الأعمال وغيرها بعد نحو ثلاثين عامًا في مقالته «ملاحظات حول الأدب السنسكريتي».

في الواقع، كان شوبنهور يشير بنبرة شبه مازحة إلى نسخته من «الأوبانيشاد» بأنها «إنجيلي»، وألمح لاحقًا أنها: «كانت عزاءً لي في حياتي وستكون كذلك عند مماتي».

كان للفكر الشرقي أهمية محورية لدى شوبنهور، حتى إنه يشير في مرحلة ما إلى «الأوبانيشاد» باعتبارها إحدى منارات ثلاث في فلسفته: «أعترف، بالمناسبة، أنني لا أعتقد أن نظريتي كان يمكن أن تظهر قبل أن تلقي نصوص «الأوبانيشاد» وأفلاطون وكانط أشعتها عليها في آنٍ واحد معًا...».

~ * ~

(١) «Bhagavad - Gita» أحد أهم وأشهر النصوص الدينية المؤسِّسة للهندوسية. (المترجم).

عُرف شوبنهور بولعه بكلبه الذي يقتنيه. وكان حين يموت واحدٌ، يستبدل به آخر، وحملت جميعها اسم «آتما». ويحكي سكان مدينة فرانكفورت أن شوبنهور العجوز كان ينهر رفيقه الكلب قائلًا: «أنت لست كلبًا! أنت إنسان! إنسان!».

~ * ~

في عام ١٨١٩ تقريبًا، قال شوبنهور الذي يغلب عليه طابع الانطوائية لأحد أصدقائه: «هل تعلم أن المتشائمين الثلاثة الكبار وُجدوا في إيطاليا في سنة واحدة؟ بايرون وليوباردي وأنا. ومع ذلك لم يتعرف أحدنا على الآخر».

~ * ~

في صباح ربيعي بارد من عام ١٨٠٥، تم العثور على والد شوبنهور – هاينريش فلوريس – ميتًا في قناة هامبورج المائية بالقرب من منزل العائلة. اعتُبرت الوفاة انتحارًا. وكان والد شوبنهور أيضًا معجبًا قديمًا بفولتير.

~ * ~

هناك الكثير الذي يُعرف من عناصر السيرة الذاتية التقليدية لحياة شوبنهور. وُلد في دانتسيج، في ٢٢ فبراير ١٧٨٨ لوالده هاينريش فلوريس شوبنهور، وكان تاجرًا ناجحًا، ووالدته هي يوهانا تروزينر، التي سوف تُعرف فيما بعد بأنها روائية شهيرة. وبعد سنوات قليلة وُلدت شقيقته أديل. كانت علاقة المتشائم الشاب مع والديه إما يشوبها التوتر (في حال والدته) أو التنافر (في

حال والده). ولا شك أن آرتور الشاب كانت تتم تنشئته بطريقة تستهدف تهيئته كي يتولى أعمال والده ذات يوم. ولما أحس الأب والأم باستياء مِن جانب ابنهما المراهق، عرضَا على شوبنهور صفقة مفادها أنهما في مقابل وعدٍ منه بمواظبة التدرب على الاشتغال بالتجارة، سوف يصحبانه في رحلة عبر أوروبا. وتعود الأسرة بعد عام، ويبدأ آرتور في ذلك الوقت تدريبه المهني في هامبورج. لكن فاجعة تحل بالأسرة في أبريل من عام ١٨٠٥، حين يُقدِم الأب هاينريش فلوريس على الانتحار. تدفع الوفاة الأم يوهانا إلى بيع أعمال تجارة الأسرة وبدء حياة جديدة في العاصمة الثقافية فيمار. وينهي آرتور تدريبه المهني ويستعد للالتحاق بالجامعة حيث يكرس جهده لدراسة اللغتين اليونانية واللاتينية. وحين يبلغ آرتور الحادية والعشرين من عمره، يحصل على نصيبه من ميراث والده ويلتحق بجامعة جوتنجن قبل أن ينتقل إلى جامعة برلين.

بحلول عام ١٨١٤، تجري في حياة شوبنهور سلسلة من التغييرات الحاسمة. كان قد أكمل لتوه أطروحة الدكتوراه، التي نُشرت تحت عنوان «في الأصل الرباعي لمبدأ السبب الكافي»، والتي تظل، على الرغم من الطابع الأكاديمي لعنوانها، تحليلًا خارقًا لإحدى ركائز الفلسفة الغربية، وهي ما يسمى بمبدأ السبب الكافي – وهو الفكرة القائلة بأن كل شيء يوجد، إنما يوجد لسبب. وسوف يسمح له العمل الذي قدمه «في الأصل الرباعي لمبدأ السبب الكافي» بأن يخطو الخطوة التالية ويشكك بالفعل في مبدأ السبب الكافي في أعماله اللاحقة، بل وحتى يحاول تجاوزه. وفي العام نفسه، بدأ شوبنهور اهتمامه الذي سيلازمه مدى الحياة بالفلسفة الشرقية، وراح يقرأ نصوص «الأوبانيشاد» و«الفيدا».

كانت سنة ١٨١٤ هي أيضًا السنة التي شهدت القطيعة النهائية بين شوبنهور ووالدته. ويشير باحثو السيرة الذاتية كثيرًا إلى علاقتهما بأنها علاقة يكتنفها التعقيد. وفي أثناء وجودها في فيمار، كانت يوهانا تصنع

لنفسها سمعة باعتبارها كاتبة شهيرة، وتعقد في أحيان كثيرة صالونات أدبية («حفلات شاي») بمنزلها - وكان جوته أحد الزائرين الذين يترددون على صالونها، وبفضل هذه العلاقة بدأ جوته وشوبنهور حوارًا مستمرًّا حول الجَمال. لكن العلاقة بين شوبنهور ووالدته كانت تزداد توترًا يومًا بعد يوم. وتَسبب شبح انتحار والده، بالإضافة إلى مشاعر الاستياء الذي تَمَلكه، في إصابة شوبنهور بنوبات اكتئابية متكررة. وفاقم هذه العلاقة المتوترة بالفعل أن يوهانا قد سارعت بحزم أمتعتها وغادرت إلى فيمار، فيما خلَّفت وراءها شوبنهور عالقًا في التدريب على مزاولة مهنة التجارة التي لم يُرِدها ولم يطلبها. ويعبر شوبنهور كثيرًا عن شكوكه إزاء حياة والدته المنغمسة في ذاتها في مدينة فيمار - على الرغم من أنها للإنصاف قد حزنت على وفاة زوجها، وكانت الآن تنعم بنجاح حققته بمجهودها. ويكشف ما تبَقى من مراسلاتهما عن سوء فهم حقيقي للطباع من قِبل الطرفين. كان شوبنهور دائم الاكتئاب والانتقاد لحياة والدته الاجتماعية، وكان يشعر نحوها بضغينة لتخليها عنه (وعلى الأرجح عن والده). وتُظهر رسائل يوهانا أنها تحاول بكل صدق مساعدة ابنها في التخلص من اكتئابه، على الرغم من أن ذلك استنفد صبرها. ويتهم شوبنهور والدته بأنها تحرص على مكانتها الاجتماعية أكثر مما تحرص على راحة ابنيها، أما يوهانا فتتهم شوبنهور بأنه ضحية تردده وأنه غير قادر على الأخذ بزمام المبادرة في حياته. وفي نوفمبر من عام ١٨٠٦، كتب لها شوبنهور وقد شعر بأنه وحيد وعالق في عمل مُضجِر، رسالة ذات نبرة سوف تجد طريقها لاحقًا إلى فلسفته:

> «ليس مقدرًا لشيء أن يدوم في حياة زائلة، لا ألم لا ينتهي، ولا فرح يستمر مدى الحياة، ولا إحساس يدوم، ولا حماس يبقى، ولا قضاء علويًّا يَصلح للحياة. كل شيء يمحوه مرور الزمن. الدقائق والذرات اللانهائية من التفاصيل الدقيقة التي ينحل إليها كل عمل هي الديدان التي تلتهم كل شيء عظيم وجَسور. إن الوحش، الذي هو الحياة العادية،

يدفع لأسفل كل شيء يحاول الصعود لأعلى. لا شيء يهم في الحياة لأن التراب لا يستحق العناء».

ونظرًا إلى أنه كان مستاءً من ماضيه ومتشككًا في مستقبله، فإن سوداوية شوبنهور البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا تحمل طابع الفكاهة والصدق في آنٍ واحد، فيما يشبه الشعور باللوعة التي باتت الآن تمثل ركيزة أساسية في روايات الناشئة. جاء رد يوهانا حادًّا ومفعمًا بالكآبة كرسالة ابنها، وإن كان أكثر إيجازًا. تكتب إلى شوبنهور عن «الحزن السوداوي الذي ورثته عن والدك». ومهدت مثل هذه المراسلات الطريق لقطيعة نهائية. وبعد محاولة فاشلة للعيش في فيمار مع عائلتها، حزمت يوهانا أمتعتها مرة أخرى وغادرتها للعيش في الريف، وكتبت ملاحظة أخيرة («الباب الذي صفقته بشدة أمس، بعد تصرفك غير اللائق تمامًا تجاه والدتك، أُغلق للأبد بيني وبينك»). وبعد عام ١٨١٤، لن يرى شوبنهور والدته مرة أخرى، بل تغيَّب حتى عن جنازتها في بون عام ١٨٣٨.

~ * ~

في عام ١٨٣١، كان شوبنهور البالغ من العمر ٤١ عامًا ينوي أن يطلب يد فلورا فايس ذات الـ١٧ ربيعًا للزواج. وفي مذكراتها تكتب فايس عن شعورها نحو شوبنهور بـ«نفور شديد»: «لم يكن يزداد إلا حدة بسبب هداياه التافهة». وفي حفلة على متن قارب في برلين، قدم شوبنهور إلى فايس عنقود عنبٍ طازج محاولًا التودد إليها. وتكتب فايس عن ردة فعلها: «لم أكن أرغب بالعنب لأن شوبنهور العجوز قد لمسه، لذلك تركته ينزلق، ويسقط في المياه بهدوء».

~ * ~

وهناك حكاية تُتداول عن شوبنهور، الذي اتخذ بالفعل، حين تقدمت به السن، هيئة ذلك العجوز المتذمر الذي تُصوره كتاباته الفلسفية. وتفيد إحدى صياغات هذه الحكاية أن شوبنهور، أثناء رحلة مشيه اليومية، وصل إلى أحد شوارع فرانكفورت المزدحمة. وتَسببت فوضى العربات التي تجرُّها خيول والعربات التي يدفعها بشر، وكذلك الخيول والكلاب والمارة من الناس، في حالة اهتياج واضحة لدى الفيلسوف العجوز. ويصعب القول ما إذا كان ذلك مدفوعًا بحقد أو يأس، ولكن على ما يبدو فإن شوبنهور، وقد سئم انتظار انجلاء الفوضى، أغمض عينيه وراح يَعبر الشارع المزدحم. كم أحب أن أتخيل الأفكار المضطربة التي لا بد أنها خطرت بباله وهو يمشي ببطء وثبات عبر الشارع. هل ستدهسه عربة خيول مسرعة، أو تدوسه مجموعة خيول أو تصدمه عربة محملة بالمعدات أو الإمدادات، أو ببساطة يوقعه أطفال عابثون؟ ربما كان يجازف بلا ضرورة أو ربما، للحظة عابرة، أراد أن يجسد عبث وهشاشة ما يعنيه أن يعيش المرء حياة بشرية.

أيًّا كان ما جرى، ففي النهاية، عبَر شوبنهور الشارع دون أن يصيبه أي مكروه على الإطلاق. ولا شك أنه اندهش، ويبدو أنه استدار ونظر إلى الوراء، ليرى أن الجميع - بما في ذلك الخيول - قد توقفوا كي يُسمح له بالمرور. يحسبونه ضريرًا.

~ * ~

التقى شوبنهور جوته لأول مرة فيما كان الفيلسوف المبتدئ قد أكمل أطروحته. جرى اللقاء خلال أحد الصالونات الأدبية الكثيرة التي كانت والدة شوبنهور تستضيفها. وبعد ذلك، دعا جوته شوبنهور إلى منزله، حيث دارت نقاشاتهما حول الفلسفة والشعر والفنون. ويبدو أن اللقاء ترك

انطباعًا لدى جوته الأكبر سنًّا والأشهر. وفي رسالة إلى صديق، يكتب جوته عن نقاشاته مع «الشاب شوبنهور»، وكيف أنه «بفضل معاندة ذكية وواثقة، ينخرط في رفع الرهانات ثلاثة أو ستة أضعاف في لعبة الفلسفة الحديثة». ويعلق جوته وكأنه يتنبأ بما سيكون: «لا أحد يدري إن كان أهل مهنته سوف يدَعونه يمر إلى طائفتهم...».

جاء التقدير شوبنهور متأخرًا، ولكنه كان بجرعات ضئيلة. وبحلول عام ١٨٥٠، تَمكن شوبنهور من نشر طبعات أخرى من مؤلفاته الكبرى، كان منها طبعة ثانية ومزيدة من كتاب «العالم إرادةً وتمثلًا» في عام ١٨٤٤، ونسخة منقحة من أطروحته «في الأصل الرباعي لمبدأ السبب الكافي» في عام ١٨٤٧. وكان قد أكمل لتوه آخر أعماله الكبرى، وهي مجموعة ضخمة من المقالات والشذرات والملاحظات التي جمعها تحت عنوان «الحواشي والبواقي»، والتي سيتم نشرها في عام ١٨٥١. وبعد فترة وجيزة سوف تظهر طبعات ثانية من الأعمال الصغرى مثل «الإرادة في الطبيعة» و«الرؤية والألوان»، وكلاهما أعيد نشره في عام ١٨٥٤. وفي أبريل من عام ١٨٥٣، ظهر مقال تقييمي في مجلة «ويستمنستر ريفيو»، وهي مجلة فلسفية ذات طابع راديكالي أسسها جيريمي بنتام، وكانت تنشر مساهمات لشخصيات من أمثال هربرت سبنسر، وماري آن إيفانز (التي اشتهرت باسمها المستعار جورج إليوت)، وجون ستيوارت مل. كان عنوان المقال «تحطيم الأوثان في الفلسفة الألمانية»، وكتبه المسرحي والناقد والمترجم جون أوكسنفورد. ساهم المقال في التعريف بأفكار شوبنهور لدى جمهور أوسع. وفيه، «يعيد» أوكسنفورد اكتشاف فلسفة شوبنهور، التي يشير إليها بأنها «منظومة من التشاؤم المفرط» تُوجه انتقادًا دائمًا لفلسفة هيجل على وجه الخصوص، وللمثالية الألمانية بشكل عام.

تُرجمت مقالة أوكسنفورد إلى الألمانية بعد شهر من ظهورها بالإنجليزية.

وساهمت في إثارة الاهتمام مجددًا بفلسفة شوبنهور في ألمانيا. ويشيد أوكسنفورد فيها بفلسفة شوبنهور لا لصرامتها ووضوحها النقدي فحسب، ولكن أيضًا لخصومتها مع الرومانتيكية والطوباوية المغترة بالذات لدى هيجل وأتباعه. ويُثني أوكسنفورد على «حكيم فرانكفورت كاره البشر» لمثابرته و«للعمل زهاء أربعين عامًا على تقويض تلك المنظومة الكاملة من الفلسفة الألمانية» التي كانت قد استغرقت في نقاشات أكاديمية متهافتة وتكهنات مترهلة حول «روح العالم»[1]. وبالإضافة إلى إشارات شوبنهور الانتقائية إلى الفكر الشرقي وآباء الصحراء[2] وشخصيات أدبية مثل كالديرون (تأتي مقالة أوكسنفورد على ذِكرهم جميعًا)، فلعل هذا التشاؤم الصارخ هو ما اجتذب جيلًا جديدًا من القراء إلى شوبنهور قرب نهاية حياته، ولا سيما عقب رومانتيكية هيجل ورفاقه الإثباتية التي شاعت بها حالة من الانتشاء. ويلمح أوكسنفورد إلى أن المرء في حضرة شوبنهور يحدِّق مباشرة في قسوة الوجود كما هو على حقيقته، وفي فلسفة لا تبصر «شخصيات تاريخية عالمية» أسطورية، ولكن بدلًا من ذلك تبصر مظاهر هائلة للمعاناة واللاجدوى والغرور. ويبدو أن البراجماتية البريطانية قد عثرت على إحدى شخصياتها.

ولكن كيف يمكن إذن تفسير زهاء أربعين عامًا من خمول الذِّكر؟ يبدو وكأن جواب أوكسنفورد يقول إن مقالة شوبنهور نفسه «عن الفلسفة في الجامعات»، ربما هي ما تَسبب في ذلك:

> «ولكن إذا كان هناك حقًّا ما هو عظيم في شوبنهور، فلماذا ظل ذِكره خاملًا طوال هذه الأربعين سنة؟... لأنه، سوف يحدثك أنه، ليس أستاذًا للفلسفة ولا يمتهن الفلسفة، وليس له منصب أكاديمي، وكان

---

(١) مصطلح رئيسي في فلسفة التاريخ عند الفيلسوف الألماني هيجل. (المترجم).

(٢) رهبان الصحراء، وهو مصطلح يشير إلى الرهبان المسيحيين الأوائل الذين عاشوا في صحراء مصر حين كانت ولاية رومانية. (المترجم).

ثمة تفاهم بين جميع الأساتذة الجامعيين على الحط من شأن أي أحد لا ينتمي إلى طائفتهم... وفيما يتعلق بنشر آرائه، فيجب أن يظل رهين حبسٍ انفرادي، وأن يُحجب تمامًا كل عمل يمكن أن يصل عبره رأيُه إلى الجمهور».

وهذا، قطعًا، عامل واحد. ولكن يرجح أيضًا أن هناك عاملًا آخر، وهو الصورة القاتمة التي يرسمها شوبنهور للعالم. والتشاؤم لا يغدو أكثر الفلسفات عزاءً - إلا حين يكون المرء متشائمًا حقًّا. ويدفع أوكسنفورد تشاؤم شوبنهور إلى حد أخلاقي كان يمكن أن يسأمه شوبنهور نفسُه: «إن عالم الظواهر وهمٌ ومحاكاة. وكون المرء يولد في مثل هذا العالم هو في حد ذاته شر... وحرية الإرادة هي، باختصار، فناء، وتلك هي أعظم هبة يمكننا التطلع إليها».

~ * ~

كان شوبنهور يهوى اقتناء الآلات الموسيقية أكثر مما يهوى العزف عليها.

~ * ~

قرب نهاية حياته، يكتب شوبنهور، بقدر من التباهي، في أحد دفاتره: «أنا وبوذا وإيكارت نُعلِّم الشيء ذاته، إيكارت مُكبَّل بأساطيره المسيحية. وفي البوذية، هنالك الأفكار ذاتها ولكن لا تعوقها مثل هذه الأساطير وهي لذلك بسيطة وواضحة، بقدر ما يمكن لأي دين أن يكون واضحًا. ومعي يوجد وضوح تام».

اقتنى نيتشه خلال حياته نُسَخًا عدة من كتاب شوبنهور «العالم إرادةً وتمثلًا». وتتضمن إحدى النسخ التي يعود تاريخ صدورها إلى عام ١٨٧٣،

وقد عُثر عليها بين كتب نيتشه في مكتبته المحفوظة في فيمار، هوامش وملاحظات كثيرة.

ومع ذلك، وعلى الرغم من إشارات شوبنهور المتكررة إلى الفكر الهندي والبوذي، فإن حفنة منها فقط هي ما لفتت انتباه نيتشه. وإحداها هي مقولة شوبنهور: «لم يكن مؤلفو «الفيدا» و«الأوبانيشاد» بشرًا على الأرجح» والتي يضع نيتشه تحتها خطًّا. ويُبرز مقولة أخرى لشوبنهور وهي: «وحدها النيرفانا تجعل التخلي طوعًا عن إرادة الحياة أمرًا ممكنًا» - والتي رد عليها نيتشه بملاحظة هامشية: «خطأ».

~ * ~

أدت إعادة إصدار مؤلفات شوبنهور - ومنها طبعة ثالثة من «العالم إرادةً وتمثلًا» في عام ١٨٥٩ - إلى جعلِ أعماله تُدرَّس، هنا وهناك في قاعات المحاضرات. وفي عام ١٨٥٥، عقدت هيئة تدريس الفلسفة بجامعة لَيبتسيج - وهي المدينة التي سيكتشف فيها الشاب نيتشه للمرة الأولى كتب شوبنهور - مسابقة لاختيار أفضل مقال يدور حول أعمال شوبنهور. وشدَّ الطلاب رحالهم إلى فرانكفورت كي يحظوا بفرصة زيارة كاره البشر وكلبه.

ورويدًا رويدًا، يشهد المرء كتبًا تُنشر هنا وهناك على غرار كتب شوبنهور، ومعظمها بالألمانية. شرع يوليوس فراونشتت، وهو تلميذ سابق لدى شوبنهور وأحد أتباعه المتحمسين، في نشر مقالات حول فلسفة شوبنهور خلال خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر، حين كان الأخير لا يزال موضع تجاهل كبير (صدر كتابه «إشعاعات مضيئة من أعمال شوبنهور» في عام ١٨٦٢، وصدر الكتاب الذي يكاد يصل إلى حد التملق «شوبنهور: منه ومن خلاله» في عام ١٨٦٣، وكان شوبنهور

في وصيته قد اختار فراونشتات كي يكون المنفذ الأدبي لوصيته...).
وفي عام ١٨٧٤، يشرع الشاعر والفيلسوف فيليبماينلاندر في العمل على كتاب «فلسفة الخلاص»، الذي يحاجج أن «إرادة الموت» المبثوثة لا بد أن تكون ناجمة عن إدراك أن اللاوجود خيرٌ من الوجود. ولم يكن كتاب ماينلاندر قد نُشر عند انتحاره في الأول من أبريل عام ١٨٧٥. وفي الوقت نفسه تقريبًا نشرت الكاتبة والمترجمة الألمانية-البريطانية هيلين زيمرن إحدى أقدم السير الذاتية الفكرية حول شوبنهور وجاءت بعنوان: «آرتور شوبنهور: حياته وفلسفته» (١٨٧٦). وبعد ذلك بسنوات قليلة، ينشر يوليوس باهنسن كتابه «التناقض في المعرفة ووجود العالم» (١٨٨٠)، محاولًا من خلاله ما لا يمكن للمرء إلا أن يسميه توليفًا مسيئًا بين شوبنهور وهيجل. وبحلول مطلع القرن، أصبحت هناك مصادر ثانوية قليلة ولكنها مهمة حول شوبنهور، كما يتضح، مثلًا، من كتاب يوهانس فولكيت المغري بالجدل «آرتور شوبنهور: شخصيته وتعاليمه وإيمانه» (١٩٠٠).

لكن أشهر الكتب التي نُشرت خلال هذه الحقبة حول شوبنهور، هو ذلك المجلد الضخم الذي ألَّفه كارل إدوارد روبرت فون هارتمان، وجاء بعنوان «فلسفة اللاوعي» (١٨٦٩). وكان الكتاب حينئذ هو المحاولة الأعظم طموحًا لتوسيع نطاق فلسفة شوبنهور، التي تمزج كما هو الحال بين تنويعات من التشاؤم وفلسفة وحدة الوجود والداروينية التطورية وعلم النفس العلاجي حسبما كان في تلك الأيام. وفيما عدا نيتشه، فقد فاق هارتمان أي مفكر آخر في التبشير بإنجيل شوبنهور، وإن ظل شوبنهور الذي بشَّر به بطبيعة الحال صاحب نمط خاص، ويحمل «طابعًا علميًّا» أوضح، ويكشف ببرود عن لامبالاة العالم الطبيعي والكائن الحي والدماغ. وبدوره، لم يتوقف نيتشه قَطُّ عن التصدي لنهاية اللعبة التشاؤمية التي طرحها شوبنهور. وحين أعاد نيتشه نشر كتابه الأول «ميلاد التراجيديا»

في عام ١٨٨٦، وضع له عنوانًا ثانويًا شارحًا هو «الهيلينية والتشاؤم». ووصل تشاؤم شوبنهور أيضًا إلى خارج ألمانيا، وإنْ بجرعات ضئيلة ومبهمة، وأثَّر في مؤلفين فرنسيين ينتمون لتيار الانحلال مثل جوريس كارل هويسمانس الذي يجعل بطل روايته «ضد الطبيعة» (À Rebours) يلجأ إلى شوبنهور «لتهدئة روحه الجريحة». كما واصل التشاؤم الشوبنهوري طريقه في اتجاه الغرب، حيث تَعرَّف عليه القراء الأمريكيون عبر كتاب إدجار سالتوس «فلسفة خيبة الأمل» (١٨٨٥). وبحلول العقود الأولى من القرن الجديد، أسس المستشرق والباحث في السنكسريتية بول ديوسن «جمعية شوبنهور الرسمية»، ويمكن للمرء أن يتبين بسهولة تأثيره في نيتشه، وكذلك في طائفة من كُتاب القرن العشرين (أمثال خورخي لويس بورخيس، وكارل يونج، وتوماس مان، ولودفيج فتجنشتين... وعلى الرغم من حرصه الشديد على النأي بأعماله عن شوبنهور، فقد اقتنى فرويد بالفعل نسخة من كتاب هارتمان «فلسفة اللاوعي»، ويُحتمل أنه أخذ ما أخذه عن شوبنهور من هذا الكتاب).

~ * ~

إنني أميل إلى الاعتقاد بأن شوبنهور بدأ يدرك حقًّا، حين اقترب أجله، الطموح المحال الذي تمثله كراهية البشر. فقد حبَّر، على الرغم من كل شيء، صفحات وصفحات تدين جميع تجليات المعاناة تقريبًا، ولا سيما المعاناة الإنسانية. وهي لا تقدم أي متعة لمن يقرأها. وتختزل مقالته التي تدور حول ما أسماه «ميتافيزيقا العمليات الجنسية» كل نشاط جنسي وشبقي، بما في ذلك ثقافة الحب الرومانسي برمتها، إلى مجرد حيل تكتيكية لإرادة الحياة اللاعاقلة والعمياء، وهي إرادةٌ هدفها الوحيد هو المزيد من الحياة فحسب، بأي ثمن وبأي وسيلة وبلا سبب. وما زالت

مقولاته سيئة السمعة عن المرأة تستعصي على الفهم حتى يومنا هذا، كما ألهمته كراهيته لعالم أساتذة الفلسفة الرجال كي يكتب أطروحة كاملة في هذا الموضوع. وتضاف إلى ذلك مقالات لاذعة لم تتوقف عند الفلاسفة، بل طالت أيضًا رجال الدين والشعراء والسياسيين، ناهيك بتعليقات ناقدة وحادة كان يوجهها إلى فنانين وأطفال وكبار في السن وطلاب و«عامة الناس» وجيران مزعجين. بل حتى كلبه الأليف لم يَسلم من تعليقاته (ولا سيما حين كان يسلك سلوك إنسانٍ أكثر منه سلوك كلب). ماذا كان قد بقي كي يفعله شوبنهور في نهاية حياته، إلا أن يحول وجهة هذه الانتقادات اللاذعة حتى تغدو موجَّهة ضد ذاته؟ إن منتهى كراهية البشر هو كراهية الذات. وكراهية الآخرين تفضي إلى كراهية الذات. وينتهي البعض إلى هذه، فيما يشرع آخرون فيها.

وفي إحدى التدوينات في كتاباته الأخيرة، يكتب شوبنهور: «حين يكون المرء قد أمضى هذه الحياة المديدة وسط حالة من خمول الذِّكر والإهمال والازدراء، ثم يأتون في النهاية يقرعون الطبول وينفخون الأبواق، يتوهمون أن هناك شيئًا ما».

~ * ~

لعل الحكاية الأكثر دلالة حول «شهرة» ما بعد الوفاة التي نالها شوبنهور، هي تلك التي تتعلق بفيلهلم فون جوينر، وهو رجل قانون وموظف عام كان من المقرر أن يصبح مُنفذًا لوصية شوبنهور. راح جوينر، بعد وفاة شوبنهور، يتلف جميع أوراق السيرة الذاتية التي خطَّها شوبنهور تقريبًا. ثم شرع بعد ذلك يكتب وينشر لا سيرة ذاتية واحدة، بل ثلاث سِير حول شوبنهور كما يلي: «آرتور شوبنهور عن قرب» (١٨٦٢)، «شوبنهور وأصدقاؤه» (١٨٦٣)، «حياة شوبنهور» (١٨٧٨). ولا يعني ذلك أنه سوف يساعد الفيلسوف

العجوز والمتذمر في كسب أي مزيد من المعجبين، ولكنه على الأرجح كان يفضلها على هذا النحو.

~ * ~

تدوينة من دفتر شوبنهور الأخير: «إن سبب الهرم والموت ليس فيزيقيًّا بل ميتافيزيقي».

~ * ~

ميجيل دي أونامونو

٢٢ أكتوبر ١٩٣٦

~ * ~

يستعصي الفيلسوف الباسكي ميجيل دي أونامونو على التصنيف: كان فيلسوفًا ويجيد بالقدر ذاته فنون الرواية والشعر والمسرح والصحافة، وكانت كتاباته في الوقت نفسه تشتبك اشتباكًا عميقًا مع مشكلات عصره - سياسية وغير سياسية، ومع ذلك فهي أيضًا منبتَّة بشكل مربك عن جميع الارتباطات. ويشاطر أونامونو مفكرين وجوديين آخرين من جيله ممن درسوا الدين بدأب في العصر الحديث في جوانب فكرية كثيرة - وعلى رأسهم ليف شيستوف وكارل ياسبرز - ولكنه كان يضجر من الصوفي بقدر ضجره من العالم. ومثل كامو، كان مهمومًا بوضع الإنسان في عالم يتجرد بشكل متزايد من الإنسانية، لكنه لم يكن يقدم أملًا في إنسانية متجددة. وكما فعل تيودور أدورنو، تَمسك أونامونو بفكرة الفلسفة بوصفها نقدًا، بَيد أنه لم يكن يرى سوى التضاد والتناقض في كل مكان. ويمكن القول إن أونامونو هو مَن سمح لشكوكه الأساسية بأن تغلف كل شيء، بداية من الدين إلى السياسة والعلوم... وصولًا إلى الشك ذاته. وقال في أحد كتبه: «ليست أفكارنا عادة هي ما تجعلنا

متفائلين أو متشائمين، ولكن تفاؤلنا أو تشاؤمنا - الذي ربما يكون سببه فسيولوجيًّا أو مَرضيًّا، أو كليهما - هو ما يصنع أفكارنا».

~ * ~

بدأ أونامونو كتابه الذي اشتُهر به وهو «الشعور المأساوي بالحياة - ١٩١٢» - في واقع الأمر كمفكرة سرية ظل يحتفظ بها على مدى سنين. وبحسب بعض الروايات، كانت هذه اليوميات - التي تغطي فترة عانى خلالها شكًّا وجوديًّا ودينيًّا عارمًا - هي الشيء الوحيد الذي يعصم أونامونو من الانتحار.

وفي عام ١٩٢٤ أجبرت الحكومة القومية أونامونو على ترك منصبه في جامعة سلامنكا. لكنه أعيد إلى منصبه في عام ١٩٣٠ بعد سقوط النظام الدكتاتوري. وفي اليوم الأول من عودته، استهل محاضرته بقوله: «كما كنت أقول...».

~ * ~

إن الشعور المأساوي لدى أونامونو هو قطعًا شعور عصري - وببساطة نتاجٌ لفرط التفكير. ويكتب قائلًا إن الوعي لا يعدو أن يكون «ومضة برق بين أبديتين من الظلام». وفوق ذلك، «إذا كان مؤلمًا أن تتلاشى من الوجود يومًا ما، فربما يكون أشد إيلامًا أن تعيش طوال الوقت بطبيعتك ولا شيء أكثر من طبيعتك». في هذا المأزق المزدوج العابر، فإننا ندرك بالبداهة وبشكل باهت أسئلة بلا أجوبة، ونصوغ بطريقة خرقاء مسائل بلا حلول. كل ذلك يفضي إلى «شيء سوف نسميه الشعور المأساوي بالحياة، بما أننا لا نجد له اسمًا أفضل، وهو يتضمن مفهومًا كاملًا للكون وللحياة ذاتها...».

إن جوهر المشكلة لا يكمن في وعينا بالفناء والتناهي والموت فحسب - ولكن في انشغالنا بهذه الأشياء (انشغالنا بالسعي لفهمها وإيجاد معنى لها بل و«حلها» أو على الأقل الحيلولة دون حصولها). «والإنسان، ولكونه إنسانًا، ولأنه يمتلك وعيًا، هو بالفعل، إذا ما قارناه بالحمار أو السلطعون، حيوان مريض». بل يعبر أونامونو عن ذلك بصراحة أكبر بعد بضع جُمل قائلًا: «الوعي مرض». إن الاستنتاج الوحيد الواضح الذي يمكن استخلاصه من ذلك الشعور هو أنه، وعلى حد تعبير أونامونو، «لا شيء أبغض من الوجود». تفكير، علِق في نفسه.

~ * ~

وعلى الرغم من انتقاده العقلانية العلمية، كان أونامونو أيضًا مفتونًا بقدرة العقل العلمي على تبديد الغموض. وفي حِقَب سابقة، يقول: «وما الجهود الرامية لجعل الوعي مادة وجعله مستقلًّا عن الامتداد - تذكر أن ديكارت وضع الفكر في مقابل الامتداد - سوى تعقيدات سفسطائية غايتها تأسيس عقلانية الإيمان بخلود الروح». ومن جهة أخرى، فإن العقلانية، حين نمدها حتى أقصى حدودها، تستغني عن آخر بقايا اللاهوت. وعلى سبيل المثال، «يَعتبر علم النفس العلمي - وهو علم النفس العقلاني الوحيد - وحدة الوعي مجرد وحدة ظاهرية». وهكذا ينشأ توتر ما بين الوعي وحياة الوعي. ويتابع أونامونو قائلًا: «يبدو دائمًا أن العقل يتصدى لتوقنا إلى الخلود الشخصي ويناقضنا. والحقيقة هي أن العقل عدو الحياة».

ولكن حتى هنا يتراجع العلم. «وحتى هؤلاء العقلانيون الذين لا يقعون فريسة للغضب المُعادي للدين سوف يظلون يصرون على إقناع البشرية بأن هناك بالفعل أسبابًا وجيهة تدعو للحياة وعزاءً لهؤلاء الذين وُلدوا - على الرغم من أنه في بضع عشرات أو مئات الملايين من القرون، سوف يكون كل

وعي إنساني قد تلاشى». وينشأ شقاق بين العقل والحياة. «لا يمكن للشعور أن يحول العزاء إلى حقيقة، ولا يمكن للعقل أن يحول الحقيقة إلى عزاء».

هذا هو الحال سواء كان الوعي موجهًا إلى الخارج، أي نحو العالم والكون، أو كان موجهًا إلى الداخل، نحو العقل نفسه. وعلى الرغم من كونه مرضًا، فإن الوعي لدى أونامونو يفضي أيضًا إلى فنائه. وفي فقرة شعرية على غير العادة، يطلب أونامونو من القارئ أن يمارس تأملًا ما:

> «اختلِ بذاتك أيها القارئ، ثم تصور نفسك تتلاشى ببطء: يُعتم النور، ويخيم على الأشياء الخرس والسكون، ويغلفك الصمت، وتصبح الأشياء التي تقبض عليها فتاتًا بين أصابعك، وتنزلق الأرض من تحت قدميك، وتتلاشى ذاكرتك وكأنك مغشيٌّ عليه، ويذوب كل شيء في العدم، وتتلاشى أنت نفسك، وحتى الشعور بالعدم لا يبقى منه إلا قبضة يد خيالية».

وهذا ما يسميه أونامونو، في عبارة موحية: «انفضاض العقلانيين».

~ * ~

كان أونامونو، الفيلسوف الباسكي الذي اشتُهر بمقولته: «الوعي مرض»، ممارسًا شغوفًا أيضًا للأوريجامي[1]، ولا سيما «الباجاريتا» (طائر ورقي صغير). ويقال إنه كان غالبًا ما يجلس في مقهاه المفضل، لا لكي يكتب، ولكن بدلًا من ذلك لكي يصنع عبر طي الورق طيور «باجاريتا».

~ * ~

أن تسخر. أن تصبح موضعًا للسخرية. هذان، بالنسبة إلى أونامونو، هما

(١) الأوريجامي فن طي وتشكيل الورق. (المترجم).

الاستجابتان الوحيدتان لمواجهة «الشعور المأساوي بالحياة». فلسفة السخرية وفلسفة هي موضع سخرية. ويكتب أونامونو: «دون كيخوت جعل نفسه موضعًا للسخرية - لكن هل كان مدركًا للسخرية الأشد مأساوية على الإطلاق، وهي السخرية التي تنعكس على الذات والسخرية من الإنسان في عينيه؟» فلسفة دون كيخوتية.

~ * ~

المؤلف

يوجين ثاكر فيلسوف وشاعر ومؤلف أمريكي. وهو أستاذ الدراسات الإعلامية بجامعة ذا نيو سكول في مدينة نيويورك، وغالبًا ما ترتبط كتاباته بالفلسفة العدمية والتشاؤم.

المترجم

أنور الشامي، مترجم مصري من مواليد عام ١٩٧٥، تخرج في كلية الألسن بجامعة عين شمس، مارس الصحافة لعدة سنوات وكتب في بعض الصحف والمجلات العربية، ترجم عن الإنجليزية العديد من الأعمال الأدبية والسير الذاتية، من بينها: رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل، وروايتا «ما بعد الظلام» و«رقص رقص رقص»، وثلاثية «1Q٨٤» لهاروكي موراكامي، و«اقتصاد الفقراء» لأبهجيت بانرجي وإستر دوفلو، و«أنا ملالا» للناشطة الباكستانية ملالا يوسفزاي. صدرت له لدى دار الكرمة ترجمة «ظلام مرئي: مذكرات الجنون» لوليام ستايرون، وترجمة رواية «احتضان» لكلير كيجن، و«روبنسون كروزو المسلم: سيرة فرناو لوبيز العجيبة» لعبد الرحمن عزام، و«في التشاؤم» ليوجين ثاكر.

«يجلب قدرًا كبيرًا من البؤس، وكثيرًا من الرفقة» — نيويورك تايمز

«نصائح للأوقات العصيبة» — نيويوركر

«يوضع بجوار مؤلفات نيتشه وشوبنهور... صوت ثاكر هادئ، وهمس يائس وسط الفراغ الذي يطارد القلب ويفطره في الوقت نفسه» — إنتو ذا فويد

هل يكون طريق النجاة في هذا العالم الذي يقف على حافة الفناء، هو إعادة قراءة هؤلاء الفلاسفة الذين أسماهم المؤلف «قديسو التشاؤم»، والاشتباك مع رؤيتهم للعالم، وكذلك مع رؤية وتأملات فيلسوف التشاؤم الحديث يوجين ثاكر؟

يبحث ثاكر عن مفاتيح سير هؤلاء الفلاسفة ومفاعيل الحياة فيهم، ويسلط الضوء على تلك اللحظات المفصلية التي اضطروا فيها إلى عيش تشاؤمهم: شوبنهور في مواجهة قاعة محاضرات فارغة في برلين، نيتشه صامتًا وقد أمسى رهين منزل شقيقته المخادعة، سيوران وهو يصارع مرض الزهايمر في قبوته الصغيرة التي يكتب فيها بالحي اللاتيني في باريس.

قراءة مغايرة وملهمة - وممتعة - لسير عدد من أهم فلاسفة التشاؤم أمثال: شامفور، وسيوران، وكيركجور، وليوباردي، وليشتنبرج، ومainلاندر، ودو مونتني، ونيتشه، وبسكال، وشوبنهور، ودي أونامونو.

يوجين ثاكر فيلسوف وشاعر ومؤلف أمريكي. وهو أستاذ الدراسات الإعلامية بجامعة «ذا نيو سكول» في مدينة نيويورك، وغالبًا ما ترتبط كتاباته بالفلسفة العدمية والتشاؤم.




ISBN 978-977-87219-5-9